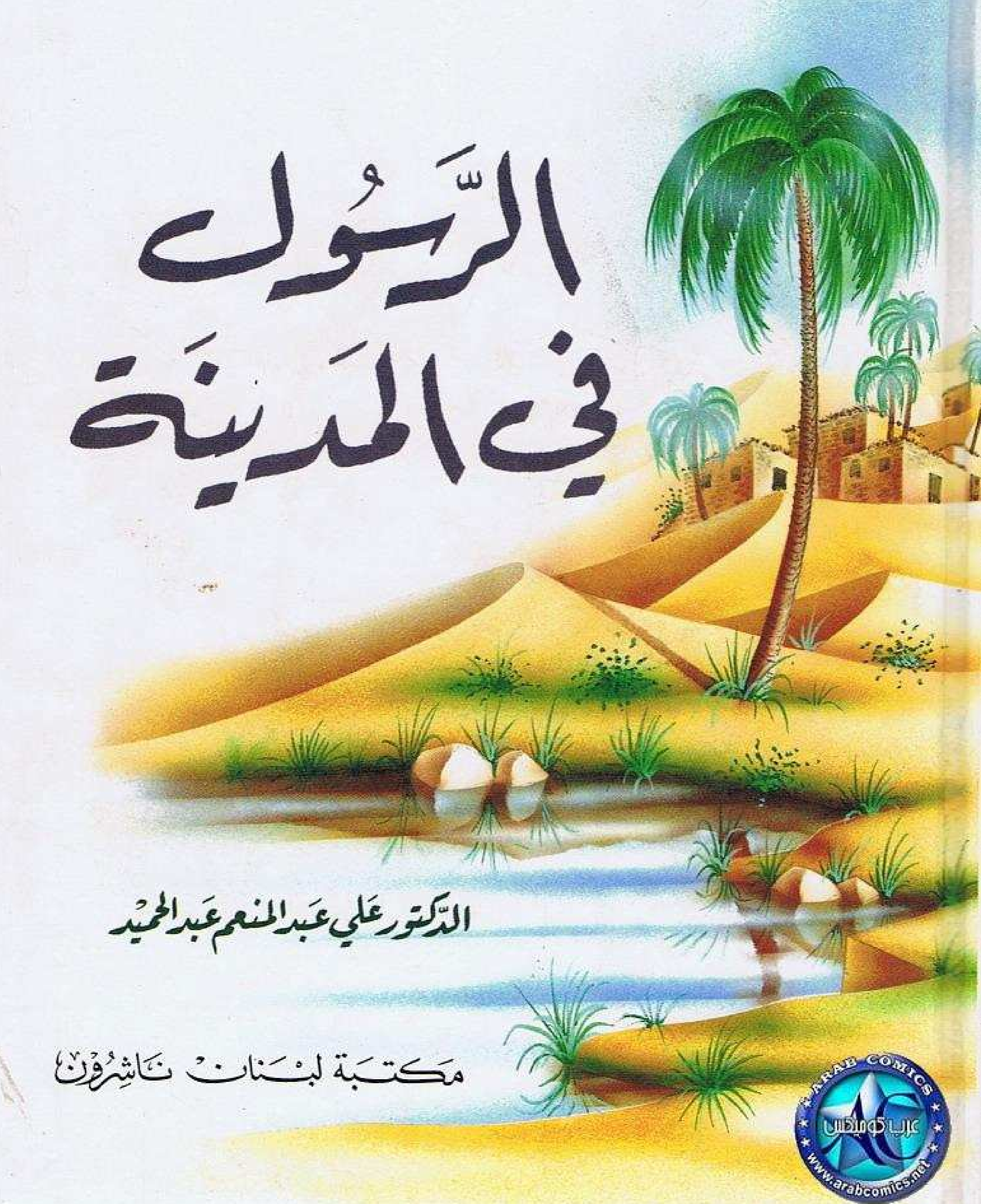
سلسلة رياض الإيمان

نفحات من سيرة الرسول وصحبه

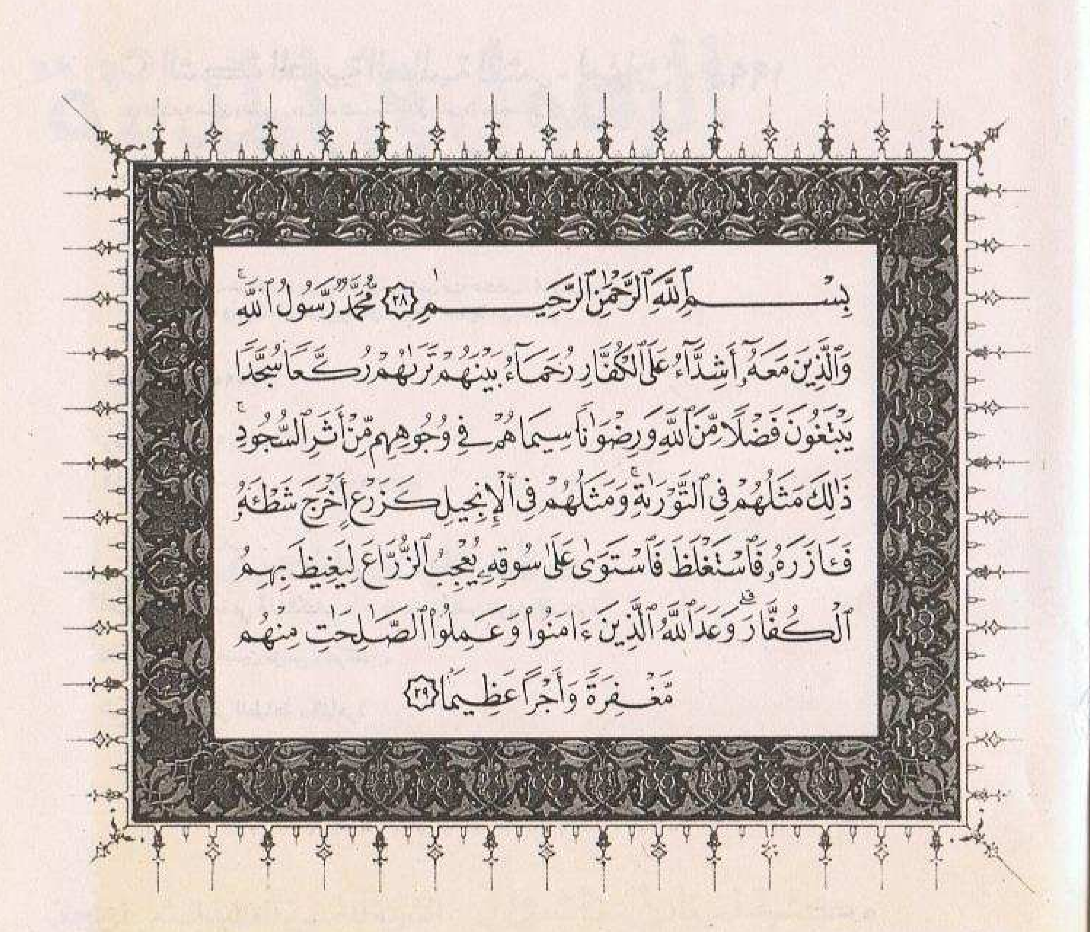
الرسول في المدينة



الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مكتبة لبنان ناشرون

الرَّسول في المدينة





نفحات من سيرة الرسول وصحبه

الرَّسول في المدينة

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مكتبة لبنان ناشرون   الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

إشراف الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

زقاق البلاط - ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٥

رقم الإيداع ١٩٩٥/٧٠٩٤

الترقيم الدولي ISBN 977-16-0170-9

غلاف : أحمد سامي

الخرائط المستخدمة في هذا الكتاب مأخوذة عن « أطلس تاريخ الإسلام » للأستاذ الدكتور حسين مؤنس ، بموافقته .

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

الإسْراءُ وَالمِعْراجُ

أَقْفرَتْ دارُ الرَّسولِ ﷺ مِنَ الطّاهِرَةِ خَديجَةَ ، وَأَصْبَحَ لا يُطيقُ البَقاءَ بِها ، وَلا المَبيتَ فيها ، مَعَ ما كانَتْ تَبْذُلُهُ ابْنَتُهُ فاطِمَةُ مِنْ رِعايَتِهِ ، وَالسَّهَرِ عَلى راحَتِهِ ، حَتّى أَطْلَقوا عَلَيْها « أُمَّ النَّبِيِّ » . وَكانَ كَثيراً ما يَبيتُ في دارِ « أُمِّ هانِئٍ » بِنْتِ عَمِّهِ أَبي طالِبٍ ، وَكانَتْ هِيَ وَزَوْجُها يُرَحِّبانِ بِهِ كَثيراً ، وَيَسْعَدانِ بِوُجودِهِ في بَيْتِهِما ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُما كانا عَلى دينِ قَوْمِهِما . وَكانَ ﷺ يَبيتُ أَحْياناً في الحِجْرِ في المَسْجِدِ الحَرامِ ، في حِراسَةِ المُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ وَأَهْلِهِ ، الَّذي كانَ قَدْ دَخَلَ مَكَّةَ في جِوارِهِ ، بَعْدَ رِحْلَةِ الطّائِفِ .

وَفي إِحْدى اللَّيالي الَّتي كانَ الرَّسولُ ﷺ فيها نائِماً في بَيْتِ « أُمِّ هانِئٍ » جاءَهُ جِبْريلُ (عَلَيْهِ السَّلامُ) فَأَيْقَظَهُ ، ثُمَّ

أَخَذَ بِيَدِهِ ، وَأَرْكَبَهُ دابَّةً اسْمُها « البُراقُ » ، وَهِيَ دابَّةٌ حادَّةُ البَصَرِ ، سَريعَةُ العَدْوِ . وَانْطَلَقَ جِبْريلُ (عَلَيْهِ السَّلامُ) بِالرَّسولِ ﷺ إِلى بَيْتِ المَقْدِسِ في فِلَسْطينَ .

وَفي بَيْتِ المَقْدِسِ – وَلَمْ يَكُنِ المَسْجِدُ قائِماً حينَئِذٍ – وَجَدَ الأَنْبِياءَ جَميعًا يَسْتَقْبِلونَهُ ﷺ ثُمَّ اصْطَفّوا لِلصَّلاةِ ، وَتَرَقَّبوا – صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِمْ – مَنْ سَيَكونُ الإِمامُ : أَ هُوَ آدَمُ أَبو البَشَرِ أَمْ إِبْراهيمُ خَليلُ الرَّحْمَنِ ؟ وَلَكِنَّ جِبْريلَ – عَلَيْهِ السَّلامُ – قَدَّمَ مُحَمَّداً ﷺ ؛ لِيُصَلِّيَ بِالأَنْبِياءِ إِماماً ، كَما أَمَرَهُ بِذَلِكَ رَبُّهُ ؛ فَهُوَ خاتَمُ الرُّسُلِ وَالأَنْبِياءِ ، وَالرِّسالَةُ الَّتي كَلَّفَهُ اللهُ أَنْ يُبَلِّغَها لِلْعالَمينَ هِيَ الرِّسالَةُ الخاتِمَةُ .

اِسْتَيْقَظَتْ « أُمُّ هانِئٍ » لَيْلاً فَوَجَدَتْ مَكانَ الرَّسولِ ﷺ خالِيًا ، فَلَعِبَتِ الظُّنونُ بِعَقْلِها ، وَخَشِيَتْ أَنْ يَكونَ قَدْ أَصابَهُ مَكْروهٌ ؛ فَاسْتَوْلى عَلَيْها الجَزَعُ ، وَاسْتَصْرَخَتْ قَوْمَها بَني هاشِمٍ ، وَصاحَتْ بِهِمْ : « لَقَدْ فُقِدَ مُحَمَّدٌ ! »

خَرَجَ رِجالُ بَني هاشِمٍ يَبْحَثونَ عَنْ مُحَمَّدٍ الَّذي

افْتَقدوهُ .. اللَّيْلُ يَبْسُطُ ظُلُماتِهِ على جَميعِ أنْحاءِ مكَّةَ – فأينَ يَذْهبونَ ؟ إنَّهُمْ لا يَسْتَطيعونَ الانْتِظارَ حتَّى يَطْلُعَ الصُّبْحُ ؛ فَقَدْ يَحْدُثُ لَهُ مكْروهٌ . انْطَلَقوا في ظُلُماتِ اللَّيْلِ يَبْحَثونَ ، ويُنادونَ ، حتَّى بَلَغَ العَبّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ جَبلاً خارِجَ مَكَّةَ ، وَصاحَ بِأعْلى صَوْتِهِ :

« يا مُحَمَّدُ ! يا مُحَمَّدُ ! »

فَجاءَهُ الجَوابُ : « لَبَّيْكَ ! لَبَّيْكَ ! »

فَقالَ لَهُ العَبّاسُ : « لَقَدْ أتْعَبْتَ قَوْمَكَ ، وَأفْزَعْتَهُمْ ! أيْنَ كُنْتَ ؟ »

وَجاءَهُ الجَوابُ : « كُنْتُ في بَيْتِ المَقْدِسِ . »

قالَ العَبّاسُ : « مِنْ لَيْلَتِكَ ؟ »

وَجاءَهُ الجَوابُ : « نَعَمْ ، لَقَدْ أُسْرِيَ بي إلى بَيْتِ المَقْدِسِ ، ثُمَّ عُدْتُ . »

قالَ العَبّاسُ : « يا بْنَ أخي ، هَلْ أصابَكَ شَيْءٌ ؟ »

قالَ الرَّسولُ ﷺ : « ما أصابَني إلا الخَيْرُ ، يا عَمّاهُ . »

وَرَجَعَ الرَّسولُ ﷺ إلى بَيْتِ « أمِّ هانِئٍ » ، وَأخْبَرَها هِيَ وَزَوْجَها بِما حَدَثَ ، وَكانَ العَجَبُ يَمْلأُ وَجْهَيْهِما ، فَقالَتْ لَهُ أمُّ هانِئٍ : « في لَيْلَةٍ واحِدَةٍ ، بَلْ في جُزْءٍ مِنَ اللَّيْلِ ، تَذْهَبُ إلى بَيْتِ المَقْدِسِ وَتَعودُ ؟ »

فَأجابَها ﷺ : « نَعَمْ ، لَقَدْ أُسْرِيَ بي إلى هُناكَ ثُمَّ عُدْتُ . »

أصْبَحَ الصَّباحُ ، وَهَمَّ الرَّسولُ ﷺ بِالخُروجِ إلى البَيْتِ العَتيقِ ، فَسَألَتْهُ أمُّ هانِئٍ : « إلى أيْنَ تَذْهَبُ ؟ »

قالَ : « إلى البَيْتِ العَتيقِ . »

قالَتْ : « لا تُخْبِرْ قَوْمَكَ بِما حَدَثَ . »

قالَ : « سَأقْضي حَقَّ البَيْتِ ، وَأطوفُ بِالكَعْبَةِ ، ثُمَّ أخْبِرُهُمْ بِما حَدَثَ . »

تَعَلَّقَتْ أمُّ هانِئٍ بِثَوْبِهِ ؛ تُحاوِلُ أنْ تَعوقَهُ عَنِ الخُروجِ ، وَهِيَ تَقولُ لَهُ : « يا بْنَ عَمِّي ، لا تُخْبِرْ بِما حَدَثَ ؛ فَيُكَذِّبَكَ بَعْضُ الَّذينَ صَدَّقوكَ ! »

وَلَكِنَّهُ ﷺ يَجْذِبُ ثَوْبَهُ مِنْ يَدِها ، وَيَخْرُجُ ، فَيَسْمَعُ صَوْتَها تَقولُ لَهُ : « يا بْنَ عَمّي ، إِنَّكَ ذاهِبٌ إِلى قَوْمٍ يُكَذِّبونَكَ ، وَأَخافُ أَنْ يُؤْذوكَ ! فَلا تُخْبِرْهُمْ بِما حَدَثَ .»

لَقَدْ كانَتْ أُمُّ هانِئٍ تَخْشى أَنْ يَجُرَّ حَديثُ الإِسْراءِ عَلى ابْنِ عَمِّها المَتاعِبَ ، وَتَخْشى أَنْ يَضيقَ بِهِ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ فَيَنْفُضَ يَدَهُ مِنْ جِوارِهِ ، فَلا يَسْتَطيعُ مُحَمَّدٌ أَنْ يَمْشِيَ في مَكَّةَ آمِنًا بَعْدَ ذَلِكَ .

قَعَدَ الرَّسولُ ﷺ في المَسْجِدِ الحَرامِ بَعْدَ أَنْ طافَ بِالكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ ، وَسَأَلَهُ بَعْضُ المُشْرِكينَ حينَ رَأَوْهُ : « ماذا وَراءَكَ اليَوْمَ ، يا مُحَمَّدُ ؟»

قالَ الرَّسولُ ﷺ : « لَقَدْ أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ إِلى بَيْتِ المَقْدِسِ .»

وَبَدَتِ الدَّهْشَةُ عَلى وَجْهِ السّائِلِ ، وَفَغَرَ فاهُ مِنَ العَجَبِ ، وَأَحَبَّ أَنْ يُشْرِكَ قُرَيْشًا كُلَّها في السُّخْرِيَةِ مِنَ الرَّسولِ ﷺ - فَصاحَ بِأَعْلى صَوْتِهِ : « يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ،

هَلُمُّوا لِتَسْمَعوا مِنْ مُحَمَّدٍ العَجَبَ العُجابَ !»

وَتَجَمْهَرَ النّاسُ ، وَأَحاطوا بِالرَّسولِ ﷺ ، وَأَخَذَ الرَّسولُ ﷺ يَرْوي لَهُمْ ما وَقَعَ لَهُ - فَتَعالى صَفيرُهُمْ واسْتِهْزاؤُهُمْ .

وَقالَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ لَهُ : « لَقَدْ كانَ أَمْرُكَ قَبْلَ اليَوْمِ يَسيرًا ، أَمّا الآنَ فَأَنا أَشْهَدُ إِنَّكَ كاذِبٌ ! إِنَّنا نَسيرُ إِلى بَيْتِ المَقْدِسِ في شَهْرٍ كامِلٍ ، وَنَعودُ في شَهْرٍ آخَرَ ، أَ تَذْهَبُ أَنْتَ وَتَعودُ في لَيْلَةٍ واحِدَةٍ ؟»

وَأَسْرَعَ بَعْضُ المُشْرِكينَ إِلى بَيْتِ أَبي بَكْرٍ ، فَالْتَقَوْا بِهِ في الطَّريقِ ، وَقالوا لَهُ : « أَ رَأَيْتَ صاحِبَكَ ؟ لَقَدْ زَعَمَ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلى بَيْتِ المَقْدِسِ ثُمَّ عادَ !»

قالَ أَبو بَكْرٍ في هُدوءٍ : « أَ وَ قَدْ قالَ ذَلِكَ ؟»

قالوا : « نَعَمْ ، وَهُوَ في المَسْجِدِ يَقُصُّ عَلى النّاسِ مَزاعِمَهُ .»

قالَ أَبو بَكْرٍ في طُمَأْنينَةٍ وَثِقَةٍ: « إِنْ كانَ قَدْ قالَ ذَلِكَ ؛ فَهُوَ صادِقٌ . إِنّي أُصَدِّقُهُ .»

عَجِبَ القَوْمُ مِنْ حَديثِ أبي بَكْرٍ، وَقالوا لَهُ في اسْتِنْكارٍ: « كَيْفَ تُصَدِّقُ أَنَّهُ يَذْهَبُ وَيَجيءُ في لَيْلَةٍ واحِدَةٍ ، وَالرِّحْلَةُ تَسْتَغْرِقُ مِنّا شَهْرَيْنِ كامِلَيْنِ ؟»

أجابَهُمْ أبو بَكْرٍ في دَهْشَةٍ مِنِ اسْتِنْكارِهِمْ : « إِنَّني أُصَدِّقُهُ فيما هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ – أُصَدِّقُهُ في أَنَّ الوَحْيَ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ؛ فَلا غَرابَةَ في أَنْ أُصَدِّقَهُ في الإِسْراءِ .»

وَأَسْرَعَ أبو بَكْرٍ إلى المَسْجِدِ ، يُعْلِنُ أمامَ قُرَيْشٍ كُلِّها تَصْديقَهُ لِلرَّسولِ ﷺ ، وَمِنْ يَوْمِها اسْتَحَقَّ لَقَبَ «الصِّدّيق».

شُغِلَتْ مَكَّةُ كُلُّها ، رِجالُها وَنِساؤُها ، المُسْلِمونَ والكافِرونَ ، بِحَديثِ الإِسْراءِ ، فَلَمْ يَبْقَ بَيْتٌ فيها إلّا وَهَذا الحَديثُ مِحْوَرُ كَلامِهِ ، وَاهْتَزَّ إيمانُ بَعْضِ المُسْلِمينَ فَرَجَعوا عَنِ الإِسْلامِ ، وَارْتَدّوا إلى الكُفْرِ . وَلَكِنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ مَضى إلى بَيْتِهِ هادِئَ النَّفْسِ ، مُسْتَريحَ الخاطِرِ ، مُطْمَئِنَّ القَلْبِ ؛ فَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ ما قَدَّرَ اللهُ لَهُ أَنْ يَراهُ ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ وَعَلى أُمَّتِهِ الصَّلاةُ خَمْسَ مَرّاتٍ في

اليَوْمِ ، فُرِضَتْ عَلَيْهِ حينَ عُرِجَ (صُعِدَ) بِهِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إلى السَّمواتِ العُلى – فَغَدَتِ الصَّلاةُ مِعْراجَ المُسْلِمينَ إلى رَبِّهِمْ في اليَوْمِ خَمْسَ مَرّاتٍ .

انْقَلَبَ الرَّسولُ ﷺ إلى بَيْتِهِ مَسْروراً ، ثابِتَ القَلْبِ ، فَرِحًا بِرِضا اللهِ عَنْهُ ، وَتَكْريمِهِ لَهُ ؛ فَقَدْ كَشَفَتْ رِحْلَةُ الإِسْراءِ وَالمِعْراجِ الحُزْنَ عَنْ قَلْبِهِ ، وَأَزالَتِ الغَمَّ عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَزاحَتِ الكَرْبَ عَنْ صَدْرِهِ ، وَكانَتْ إِعْلانًا أَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – ناصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ ، عَلى الرَّغْمِ مِمّا واجَهَهُ بِهِ المُشْرِكونَ في مَكَّةَ وَفي الطّائِفِ : ﴿ كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنا وَرُسُلي ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزيزٌ .﴾

بَيْعَة العَقَبَة

الأولى و الثّانِيَة

كانَتْ « يَثْرِبُ » – قَبْلَ هِجْرَةِ الرَّسولِ ﷺ إِلَيْها – تَموجُ بِالعَداوَةِ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ ، وَهُما القَبيلَتانِ اللَّتانِ كانَتا تَسْكُنانِ يَثْرِبَ ، فَما يَسْتَطيعُ يَثْرِبِيٌّ أَنْ يَمْضِيَ في الطَّريقِ آمِناً ، وَلا أَنْ يَمْشِيَ في الأَسْواقِ مُطْمَئِنا . لَقَدْ دامَتِ الحُروبُ بَيْنَ القَبيلَتَيْنِ مِائَةً وَعِشْرينَ عاماً ، حَتّى كادَتْ تُفْنيهِما ، لا فَرْقَ بَيْنَ غالِبٍ وَمَغْلوبٍ ، وَهَدَّدَتْ بَلَدَهُما بِالدَّمارِ ، وَالجوعِ وَالخَرابِ .

وَكانَ الحُكَماءُ وَالرّاشِدونَ مِنَ القَبيلَتَيْنِ يُفَكِّرونَ في وَسيلَةٍ تَجْمَعُ القَبيلَتَيْنِ عَلى الخَيْرِ ، وَتَلُمُّ شَمْلَهُما ، وَتُوَحِّدُ كَلِمَتَهُما – فَلا يَجِدونَ !

وَكانوا يَسْمَعونَ مِنَ اليَهودِ الَّذين لَجَئُوا إِلى يَثْرِبَ ،

وَأَقاموا فيها – أَنَّ نَبِيًّا سَيُبْعَثُ وَهَذا زَمانُهُ ، وَيُهَدِّدونَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَيَتَّبِعونَ هَذا النَّبِيَّ عِنْدَ ظُهورِهِ ، وَيَسْتَعينونَ بِهِ عَلى قَتْلِ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ جَميعاً ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْهُمْ .

وَكانَ الرَّسولُ ﷺ في مَكَّةَ ، يَنْتَهِزُ مَوْسِمَ الحَجِّ ، فَيَخْرُجُ إِلى القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ ، الَّتي وَفَدَتْ في المَوْسِمِ ، وَيَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَيْها ، يَطْلُبُ مِنْها الإيمانَ بِاللهِ الواحِدِ ، وَحِمايَتَهُ حَتّى يُبَلِّغَ دَعْوَةَ رَبِّهِ إِلى النّاسِ . وَلَكِنَّ عَمَّهُ أَبا لَهَبٍ وَبَعْضَ سادَةِ قُرَيْشٍ كانوا يَسيرونَ وَراءَهُ ، وَيَقولونَ لِلنّاسِ : « لا تُصَدِّقوهُ . إِنَّهُ مَجْنونٌ يَهْذي ! »

وَكانَ كَثيرٌ مِنَ القَبائِلِ يَرُدّونَهُ رَدًّا مُنْكَراً ، وَيَقولونَ : « لَوْ كانَ فيهِ خَيْرٌ ما تَرَكَهُ أَهْلُهُ . »

ظَلَّ الرَّسولُ ﷺ تِسْعَ سَنَواتٍ كامِلَةً ، يُحاوِلُ أَنْ يُضيءَ بِأَنْوارِ الإِسْلامِ القُلوبَ ، وَقُرَيْشٌ تُحاوِلُ أَنْ تُطْفِئَ نورَ اللهِ ، وَلَكِنْ يَأْبى اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نورَهُ ، وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكونَ . فَفي العامِ العاشِرِ خَرَجَ الرَّسولُ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلى القَبائِلِ ،

فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ أَحَدٌ ، حَتّى انْفَضَّتِ الأَسْواقُ ، وَبَدأَ النّاسُ الحَجَّ ، وَعادَتْ قُرَيْشٌ إلى مَكَّةَ تَسْتَقْبِلُ الحُجّاجَ . وَمَشى الرَّسولُ الكَريمُ إلى خارِجِ مَكَّةَ ، وَأصْبَحَتِ الفُرْصَةُ مُهَيَّأَةً لَهُ ؛ كَيْ يَتَحَدَّثَ إلى قَبائِلِ العَرَبِ ، وَلَيْسَ وَراءَهُ سادَةُ قُرَيْشٍ يُكَذِّبونَهُ ، وَيُحَرِّضونَ النّاسَ على عَدَمِ الاسْتِماعِ إلَيْهِ ؛ لأنَّ قُرَيْشًا لا تُغادِرُ مَكَّةَ ، وَلا تَفْعَلُ في الحَجِّ مِثْلَ سائِرِ العَرَبِ – بَلْ تَتَمَيَّزُ عَلَيْهِمْ بِالبَقاءِ داخِلَ حُدودِ مَكَّةَ لا تُغادِرُها . إنَّها فُرْصَةٌ طَيِّبَةٌ لَعَلَّ الرَّسولَ ﷺ يَجِدُ فيها مَنْ يَسْتَمِعُ إلَيْهِ ، وَيَشْرَحُ اللهُ صَدْرَهُ لِلإيمانِ بِدَعْوَةِ الإسْلامِ .

وَبَيْنا هُوَ عِنْدَ جَمْرَةِ العَقَبَةِ – عَلى يَسارِ الطَّريقِ مِنْ مَكَّةَ إلى مِنى – لَقِيَ قَوْمًا ، فَسَأَلَهُمْ : « مَنْ أَنْتُمْ ؟ »

قالوا : « مِنَ الخَزْرَجِ . »

قالَ : « أَلا تَجْلِسونَ أُكَلِّمُكُمْ ؟ »

قالوا : « بَلى . »

كانوا سِتَّةَ رِجالٍ ، جَلَسوا وَجَلَسَ الرَّسولُ الكَريمُ وَمَعَهُ

أبو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ ، وَأَخَذَ يُحَدِّثُهُمْ عَنِ الإسْلامِ ، وَيَتْلو عَلَيْهِمُ القُرآنَ الكَريمَ ، وَإذا هُوَ يَنْزِلُ عَلى قُلوبِهِمْ بَرْدًا وَسَلامًا ؛ تَفَتَّحَتْ لَهُ مَغاليقُ نُفوسِهِمْ ، وَانْشَرَحَتْ لَهُ صُدورُهُمْ ، وَأَضاءَ الإيمانُ جَوانِبَهُمْ ؛ فَأَعْلَنوا إسْلامَهُمْ !

لَقَدْ قالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : « إنَّ هَذا هُوَ النَّبِيُّ الَّذي تَحَدَّثَتْ عَنْهُ اليَهودُ ، وَلَنْ نَدَعَهُمْ يَسْبِقونَنا إلَيْهِ . »

وَالْتَفَتوا إلى النَّبِيِّ ﷺ وَقالوا لَهُ : « أَنْتَ النَّبِيُّ الَّذي بَعَثَهُ اللهُ ، وَنَحْنُ نُصَدِّقُكَ – فَمُرْنا بِما تُريدُ . »

غَمَرَ وِجْدانَ النَّبِيِّ ﷺ فَيْضٌ مِنَ النُّورِ وَالسُّرورِ ، وَتَهَلَّلَ وَجْهُ أَبي بَكْرٍ وَعَلِيٍّ بِالبِشْرِ وَالحُبورِ – فَقَدْ بَدَأَ الإسْلامُ يَأْخُذُ طَريقَهُ إلى القُلوبِ خارِجَ مَكَّةَ . وَخَرَّ الرَّسولُ الكَريمُ لِرَبِّهِ ساجِداً شاكِراً .

وَأَخَذَ ﷺ يَخْتَلِفُ إلَيْهِمْ لِيُعَلِّمَهُمْ أُمورَ دينِهِمْ ، وَيَتْلو عَلَيْهِمُ القُرْآنَ الكَريمَ ، حَتّى حانَ مَوْعِدُ رَحيلِهِمْ ، فَقالوا لَهُ : « يا رَسولَ اللهِ ، لَقَدْ تَرَكْنا قَوْمَنا وَبَيْنَهُمْ مِنَ العَداوَةِ ما

لَيْس بيْنَ أحَدٍ مِثْلُهُ ، فَإنْ يَجْمَعْهُمُ اللهُ عَلَيْكَ فَلَنْ يَكونَ – واللهِ – رَجُلٌ أعَزَّ مِنْكَ .»

ثُمَّ وَدَّعوهُ ﷺ ، وَ واعَدوهُ المَوْسِمَ القادِمَ .

وانْطَلَقَ هؤُلاءِ النَّفَرُ عائِدينَ إلى يَثْرِبَ مَعَ قَوْمِهِمْ ، وما إنْ بَلَغوها حتّى شَمَّروا عَنْ ساعِدِ الجِدِّ ، وَراحوا يَدْعونَ قَوْمَهُمْ إلى الإسْلامِ الَّذي اسْتَضاءَتْ بِهِ صُدورُهُمْ ، وَتَذَوَّقَتْ حَلاوَتَهُ قُلوبُهُمْ ، وَيَقولونَ : « إنَّهُ النَّبِيُّ الَّذي تُهَدِّدُكُمْ بِهِ اليَهودُ . إنَّ عَلَيْنا أنْ نَسْبِقَهُمْ إلَيْهِ .»

وَأخَذوا يَشْرَحونَ لَهُمْ تَعاليمَ الإسْلامِ ، وَيُوَضِّحونَ مَبادِئَهُ كَما عَلَّمَهُمُ الرَّسولُ الكَريمُ ، وَيَتْلونَ عَلَيْهِمْ ما حَفِظوا مِنْ آياتِ الذِّكْرِ الحَكيمِ . وَلَمْ يَقْتَصِروا في دَعْوَتِهِمْ عَلى قَبيلَتِهِمُ الخَزْرَجِ ، بَلْ سَعَوْا إلى أبْناءِ عَمِّهِمْ قَبيلَةِ الأوْسِ ، فَبَثّوا فيها الدَّعْوَةَ ، وَتَلَوُا القُرْآنَ – وإذا قُلوبٌ مِنَ الأوْسِ وَالخَزْرَجِ تَسْتَجيبُ لِدَعْوَةِ اللهِ ، وَتَدْخُلُ في الإسْلامِ ، وَتَتَشَوَّقُ لِلِقاءِ الرَّسولِ الحَبيبِ ، وَتَتَعَجَّلُ مَوْسِمَ الحَجِّ .

وافَى مَوْسِمُ الحَجِّ في السَّنَةِ الحادِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ البَعْثَةِ ، وَخَرَجَ المُسْلِمونَ مِنْ يَثْرِبَ يَقْصِدونَ مَكَّةَ ، مَعَ مَنْ يَقْصِدُها مِنْ قَوْمِهِمْ ، وَكانَتْ قُلوبُهُمْ تَكادُ تَقْفِزُ مِنْ صُدورِهِمْ ؛ فَرَحًا بِلِقاءِ الرَّسولِ الحَبيبِ ، وَالاسْتِماعِ إلى ما يَتَدَفَّقُ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهِ مِنْ قُرْآنٍ كَريمٍ ، وَما يُفيضُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ حِكْمَةٍ وَنورٍ. لَقَدْ هَبَّتْ عَلَيْهِمْ نَسائِمُ الألْطافِ، وَحَنَّتْ قُلوبُهُمْ إلى اللِّقاءِ المَوْعودِ .

طافَ اليَثْرِبِيّونَ بِالبَيْتِ العَتيقِ ، وَأشارَ العارِفونَ مِنْهُمْ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَلَمْ يَتَحَدَّثوا إلَيْهِ خيفَةَ أنْ تَكْشِفَ قُرَيْشٌ سِرَّهُمْ ، وإنْ كانَتْ نُفوسُهُمْ تُنازِعُهُمْ مُنازَعَةً قَوِيَّةً شَديدَةً إلى لِقائِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَحْبِسونَها في جِهادٍ عَنيفٍ ، كَما أوْصاهُمُ الرَّسولُ الكَريمُ ، فَكُلُّ شَيْءٍ بِميعادٍ !

خَرَجَ الحُجّاجُ مِنْ مَكَّةَ إلى مِنى وَعَرَفاتٍ ، وَقُرَيْشٌ لا تَخْرُجُ كَما تَخْرُجُ سائِرُ العَرَبِ ، وَحانَتِ الفُرْصَةُ الذَّهَبِيَّةُ لِلِقاءِ الرَّسولِ الحَبيبِ ، الَّذي طالَما هَفَتْ إلَيْهِ قُلوبُهُمْ ، وَتَمَثَّلَتْهُ نُفوسُهُمْ .. إنَّ المَوْعِدَ عِنْدَ العَقَبَةِ .

وعند العقبة جلس الرسول ﷺ ، وجلس اليثربيون معه ، يستأنسون بالنور الذي يضيء صدورهم ، والبشر الذي يملأ قلوبهم ، ويصغون إلى القرآن الكريم يرتله النبي الأمين، فيجلو صدأ قلوبهم ، ويسكب النور في جوانحهم. إنهم يتذوقون لذة روحية خالصة لا كدر فيها، ويستشعرون أنسا لا خوف معه ، ويعيشون اطمئنانا لا قلق فيه – إنهم في رعاية الله وفي ظلال رسوله الكريم . وكانت بيعة العقبة الأولى ، وكان الرجال اثني عشر رجلا : بايعهم الرسول ﷺ على عبادة الله وحده ، والسمع والطاعة في الشدة والرخاء ، والالتزام بمبادئ الدين ؛ فلا سرقة ولا قتل ولا عصبية .

ومضى القوم بعد أن انقضى موسم الحج إلى بلادهم ، وقد امتلأت قلوبهم نورا ، وكان معهم هذه المرة « مصعب ابن عمير » من مكة ، فقد طلبوا من رسول الله أن يبعث معهم من يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويؤمهم في الصلاة – فاختار لهم صاحب الصوت الندي ، والقلب

الرضي « مصعبا » ليكون أول مبشر بالإسلام خارج مكة.

مكث « مصعب بن عمير » عاما في يثرب ، يدعو إلى الله على بصيرة ، هو ومن معه من المسلمين ، فلم تبق دار في يثرب إلا وقد دخلها الإسلام ، وتلي فيها القرآن ، وذكر فيها الله والرسول . فلما وافى موسم الحج خرج المسلمون من يثرب مع قومهم المشركين ، لم ينعزلوا عنهم حتى لا يثيروا الريبة والشك ، فلما بلغوا مكة أسرع مصعب إلى الرسول ﷺ ينبئه بإسلام من أسلم في يثرب ، والرسول يغمر وجهه السرور ؛ فقد لاحت تباشير النصر بعد طول ترقب وانتظار .

وكان موعد اللقاء عند العقبة ، وكان المسلمون الذين مع « مصعب » ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ، هما : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو .

لبثوا ينتظرون مقدم رسول الله ، وهم في لهفة وشوق إلى لقائه ، والإصغاء إليه . وما هي إلا لحظات معدودة حتى طلع عليهم الرسول الحبيب ، ومعه عمه العباس بن

عَبْدِ المُطَّلِبِ . وَقَدْ أَوْقَفَ العَبّاسُ عَلِيَّ بْنَ أَبي طالِبٍ على مَدْخَلِ الطَّريقِ ، كَما أَوْقَفَ أَبا بَكْرٍ على المَدْخَلِ الآخَرِ ؛ حَتّى لا يُفاجِئَهُمْ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكينَ وَهُمْ مُجْتَمِعونَ ، فَيَنْفَضِحَ أَمْرُ أَهْلِ يَثْرِبَ .

كانَ العَبّاسُ أَوَّلَ المُتَحَدِّثينَ ، فَقالَ : « يا أَهْلَ يَثْرِبَ ، إِنَّ مُحَمَّداً مِنّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، وَإِنَّهُ في مَنَعَةٍ وَقُوَّةٍ مِنْ أَهْلِهِ ، وَقَدْ أَبى إِلا الانْحِيازَ إِلَيْكُمْ ، وَاللَّحاقَ بِكُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ قادِرينَ على الوَفاءِ فَأَنْتُمْ وَما تَحَمَّلْتُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ سَوْفَ تَخْذُلونَهُ وَتَتَخَلَّوْنَ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ يُصْبِحَ بَيْنَكُمْ فَمِنَ الآنَ دَعُوهُ في بَلَدِهِ ، وَبَيْنَ أَهْلِهِ . »

قالَ أَحَدُ اليَثْرِبِيِّينَ : « إِنَّ ما في قُلوبِنا هُوَ ما تَنْطِقُ بِهِ أَلْسِنَتُنا ، وَقَدِ انْتَوَيْنا الوَفاءَ ، وَبَذْلَ الأَرْواحِ وَالأَمْوالِ في سَبيلِ اللهِ . »

قالَ العَبّاسُ : « يا قَوْمُ ، إِنَّ خُروجَهُ إِلَيْكُمْ سَوْفَ يَجُرُّ عَلَيْكُمْ حَرْبَ العَرَبِ كُلِّها ، فَإِنْ كُنْتُمْ أَهْلَ صَبْرٍ وَشَجاعَةٍ

وَ وَفاءٍ – فَأَجْمِعوا أَمْرَكُمْ ، وَإِلا فَاتْرُكوهُ . »

قالَ أَحَدُهُمْ : « قَدْ سَمِعْنا مَقالَتَكَ . تَكَلَّمْ ، يا رَسولَ اللهِ ، فَاشْتَرِطْ لِرَبِّكَ ، وَاشْتَرِطْ لِنَفْسِكَ . »

قالَ الرَّسولُ ﷺ : « أَشْتَرِطُ لِرَبّي أَنْ تَعْبُدوهُ وَلا تُشْرِكوا بِهِ شَيْئًا . وَلِنَفْسي أَنْ تَمْنَعوني مِمّا تَمْنَعونَ مِنْهُ أَبْناءَكُمْ وَنِساءَكُمْ . »

قالَ أَحَدُهُمْ : « وَ ما لَنا إِنْ فَعَلْنا ذَلِكَ ؟ »

أَجابَهُ الرَّسولُ ﷺ : « لَكُمُ الجَنَّةُ . »

قالَ الرَّجُلُ : « رَبِحَ البَيْعُ ! رَبِحَ البَيْعُ ! اُبْسُطْ يَدَكَ نُبايِعْكَ . »

وَكانَتْ بَيْعَةُ العَقَبَةِ الثّانِيَةِ .

بايَعَ الأَنْصارُ – كَما سَمّاهُمُ اللهُ وَرَسولُهُ – الرَّسولَ ﷺ على حِمايَتِهِ ، وَالدِّفاعِ عَنِ العَقيدَةِ ، وَخَوْضِ غِمارِ الحُروبِ في سَبيلِها ، وَبَذْلِ الأَمْوالِ وَالأَنْفُسِ مِنْ أَجْلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ، وَنَشْرِ دينِ اللهِ في الأَرْضِ .

وَازْدادَ حَماسُهُمْ وَهُمْ يُبايِعونَ ، فَارْتَفَعَتْ أَصْواتُهُمْ ؛ فَقالَ لَهُمُ العَبّاسُ : « اِخْفِضوا أَصْواتَكُمْ حَتّى لا يَسْمَعَ بِكُمْ أَحَدٌ .»

ثُمَّ قالَ العَبّاسُ مُتَأَثِّرًا بِحَماسِ الأَنْصارِ ، وَبَهْجَتِهِمْ بِالإِسْلامِ : « اللَّهُمَّ إِنَّكَ سامِعٌ شاهِدٌ ، وَإِنَّ ابْنَ أَخي قَدِ اسْتَرْعاهُمْ ذِمَّتَهُ . اللَّهُمَّ كُنْ لِابْنِ أَخي عَلَيْهِمْ شَهيدًا .»

وَقالَ لَهُمُ الرَّسولُ : « أَخْرِجوا لي مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقيبًا يَكونونَ كُفَلاءَ عَلَيْكُمْ .»

فَأَخْرَجوا لَهُ تِسْعَةً مِنَ الخَزْرَجِ ، وَثَلاثَةً مِنَ الأَوْسِ .

فَرَغَ القَوْمُ مِنَ البَيْعَةِ ، فَعادوا إِلى رِحالِهِمْ فُرادى مُتَسَلِّلينَ كَما خَرَجوا ، لَمْ يَشْعُرْ بِخُروجِهِمْ وَلا بِرُجوعِهِمْ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِمْ ، وَلَمْ يَعْلَمِ المُشْرِكونَ مِنْ قَوْمِهِمْ شَيْئًا عَنْ إِسْلامِهِمْ وَبَيْعَتِهِمْ ، وَلَكِنَّ سادَةَ قُرَيْشٍ عَرَفوا ؛ فَأَجْمَعوا أَمْرَهُمْ ، وَخَرَجوا في إِثْرِهِمْ ؛ فَأَنْكَرَ المُشْرِكونَ مِنْ يَثْرِبَ أَنْ يَكونَ قَدْ حَدَثَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، وَأَقْسَموا أَنَّ

أَحَدًا مِنْ قَوْمِهِمْ لَمْ يَبْرَحْ رِحالَهُمْ .

وَلَكِنَّ سادَةَ قُرَيْشٍ لَمْ يَقْتَنِعوا، فَراحوا يَبْحَثونَ وَيَسْتَقْصونَ، حَتّى تَيَقَّنوا مِمّا حَدَثَ . وَكانَ الحُجّاجُ اليَثْرِبِيّونَ قَدْ غادَروا مَكَّةَ في طَريقِ عَوْدَتِهِمْ ؛ فَاقْتَفَتْ قُرَيْشٌ آثارَهُمْ ، فَلَمْ تُدْرِكْ مِنْهُمْ إِلا سَعْدَ بْنَ مُعاذٍ ، وَكانَ قَدْ تَخَلَّفَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ ، فَقَيَّدوهُ وَحَمَلوهُ إِلى مَكَّةَ ، وَهُمْ يُشْبِعونَهُ ضَرْبًا ، حَتّى أَجارَهُ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ ، وَقَدْ كانَ سَعْدٌ يُجيرُهُ في يَثْرِبَ ، وَيَحْمي تِجارَتَهُ ، وَيَمْنَعُ عَنْهُ الظُّلْمَ وَالعُدْوانَ .

اِنْطَلَقَ رَكْبُ الأَنْصارِ عائِدًا إِلى يَثْرِبَ ، وَكانَ القَمَرُ يُرْسِلُ أَشِعَّتَهُ الفِضِّيَّةَ ، فَتَغْمُرُ الصَّحْراءَ ، وَتُحيلُها بَحْرًا مِنَ الفِضَّةِ ، وَلَكِنَّ النّورَ الَّذي كانَ يَغْمُرُ صُدورَ الأَنْصارِ يَفوقُ كُلَّ ضِياءٍ . إِنَّ قُلوبَهُمْ تَمْتَلِئُ سَكينَةً وَطُمَأْنينَةً ، وَإِنَّ صُدورَهُمْ تَسْتَشْعِرُ الأَمْنَ وَالسَّلامَ . إِنَّهُمْ يَنْتَظِرونَ مَقْدَمَ الرَّسولِ الحَبيبِ إِلى بِلادِهِمْ ؛ لِيَمْنَعوهُ وَيَنْصُروهُ وَيَشُدّوا مِنْ أَزْرِهِ – فَعَلى ذَلِكَ بايَعوهُ !

الهِجْرَةُ

اِشْتَدَّ إيذاءُ الكُفّارِ لِلضُّعَفاءِ وَالعَبيدِ مِنَ المُسْلِمينَ ، وَكانَ الرَّسولُ ﷺ يُصَبِّرُهُمْ عَلى ما هُمْ فيهِ ، وَيَدْعو اللهَ أنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مِنْهُ مَخْرَجاً .

وَماتَ أبو طالِبٍ عَمُّ الرَّسولِ ﷺ ، وَكانَ يُدافِعُ عَنِ الرَّسولِ ، وَيَمْنَعُ عَنْهُ الأذى .

وَماتَتِ السَّيِّدَةُ خَديجَةُ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) زَوْجَةُ الرَّسولِ ﷺ وَحاضِنَةُ الإسْلامِ ، وَكانَتْ تُطَمْئِنُهُ ، وَتُخَفِّفُ عَنْهُ .

وَامْتَدَّ أذى المُشْرِكينَ إلى الرَّسولِ ﷺ حَتّى إنَّ أحَدَ الكُفّارِ ألْقى عَلى ظَهْرِهِ ﷺ وَهُوَ ساجِدٌ أحْشاءَ بَعيرٍ ، وَلَمّا عَلِمَتِ ابْنَتُهُ فاطِمَةُ خَرَجَتْ مُسْرِعَةً ، تَدْفَعُ عَنْ أبيها ﷺ .

حَزِنَ الرَّسولُ ﷺ لِذَلِكَ ؛ فَابْنَتُهُ هِيَ الَّتي خَرَجَتْ تَدْفَعُ عَنْهُ ، في بيئَةٍ يَدْفَعُ فيها الأبُ عَنِ ابْنَتِهِ. وَدَعا الرَّسولُ ﷺ

أنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْمُسْلِمينَ فَرَجاً مِنْ هَذا الضّيقِ ، وَأنْ يَجْعَلَ لَهُمْ بَعْدَ العُسْرِ يُسْراً .

وأذِنَ اللهُ – عَزَّ وَ جَلَّ – لِلْمُسْلِمينَ بِالهِجْرَةِ إلى يَثْرِبَ (المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ) ، وَكانَ جَماعَةٌ مِنْ سُكّانِها مِنْ قَبيلَتَيِ الأوْسِ وَالخَزْرَجِ قَدْ أسْلَموا ، حينَ الْتَقى بِهِمُ الرَّسولُ ﷺ في مَوْسِمِ الحَجِّ ، وَأرْسَلَ مَعَهُمْ « مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ » يُعَلِّمُهُمُ القُرْآنَ ، وَيَشْرَحُ لَهُمُ الدّينَ ، فَكانَ أوَّلَ مُبَشِّرٍ في الإسْلامِ .

وَبايَعوا الرَّسولَ ﷺ عَلى أنْ يَنْصُروهُ ، إذا هاجَرَ إلَيْهِمْ .

فَلَمّا هاجَرَ المُسْلِمونَ إلى يَثْرِبَ (المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ) اسْتَقْبَلَهُمُ المُسْلِمونَ الَّذينَ كانوا يَسْكُنونَ المَدينَةَ – وَهُمْ مِنَ الأوْسِ وَالخَزْرَجِ – اِسْتَقْبَلوهُمُ اسْتِقْبالاً طَيِّباً ، وَرَحَّبوا بِهِمْ ، وَأنْزَلوهُمْ في بُيوتِهِمْ .

وَظَلَّ المُسْلِمونَ المُقيمونَ في مَكَّةَ يُهاجِرونَ واحِداً بَعْدَ الآخَرِ إلى المَدينَةِ في سِرِّيَّةٍ تامَّةٍ ، حَتّى لا يَمْنَعَهُمُ الكُفّارُ

مِنَ الهِجْرَةِ ؛ لِيَظَلُّوا يُعَذِّبونَهُمْ ، وَيُراقِبونَهُمْ في مَكَّةَ ، ما عَدا عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ ؛ فَقَدْ هاجَرَ جَهْراً ، وَهَدَّدَ قُرَيْشاً أَنْ تَتْبَعَهُ أَوْ تَمْنَعَهُ ، فَلَمْ يَتَحَرَّكْ مِنْ قُرَيْشٍ أَحَدٌ .

وَأَذِنَ اللهُ لِرَسولِهِ ﷺ في الهِجْرَةِ إلى يَثْرِبَ (المَدينة المُنَوَّرة) كَما سَمّاها الرَّسولُ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَأَخْبَرَ الرَّسولُ ﷺ أَبا بَكْرٍ بِهَذا الخَبَرِ ؛ لأَنَّهُ سَيَكونُ صاحِبَهُ في هَذِهِ الرِّحْلَةِ الشّاقَّةِ المُبارَكَةِ .

وَأَخَذَ أَبو بَكْرٍ يُجَهِّزُ العُدَّةَ لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ ، وَيُراجِعُ الخُطَّةَ مَعَ الرَّسولِ ﷺ .

وَكانَتْ عِنْدَ الرَّسولِ ﷺ أَماناتٌ وَ وَدائِعُ لِكَثيرٍ مِنْ كُفّارِ مَكَّةَ ؛ فَقَدْ كانوا يَضَعونَ عِنْدَهُ ﷺ وَدائِعَهُمُ الَّتي يَخافونَ عَلَيْها ، وَمَعَ ذَلِكَ يُكَذِّبونَ دَعْوَتَهُ إلى الإِسْلامِ . وَكانَ مِنَ الضَّروريِّ أَنْ يَرُدَّ الرَّسولُ ﷺ هَذِهِ الأَماناتِ وَالوَدائِعَ إلى أَصْحابِها ، فَهِيَ أَمْوالُهُمْ ، وَيَجِبُ أَنْ تُرَدَّ هَذِهِ الأَمْوالُ إلى أَصْحابِها ، مَهْما كانَتْ مُعامَلَتُهُمْ لَهُ ﷺ ، وَمَهْما كانَ

إيذاؤُهُمْ لِلْمُسْلِمينَ ، وَمَهْما كانَ ضيقُهُ ﷺ مِنْ كُفْرِهِمْ وَعِنادِهِمْ .

وَكانَتْ قُرَيْشٌ تَشْعُرُ بِأَنَّ هُناكَ شَيْئاً يَحْدُثُ ، وَأَنَّ المُسْلِمينَ يَخْرُجونَ مِنْ مَكَّةَ إلى يَثْرِبَ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً ﷺ سَوْفَ يَلْحَقُ بِهِمْ .

وَكانَتْ قُرَيْشٌ تَخافُ – إِنْ تَمَّتْ هَذِهِ الهِجْرَةُ – أَنْ يُصْبِحَ المُسْلِمونَ قُوَّةً تُهَدِّدُها ، وَتَقْطَعُ طَريقَ التِّجارَةِ عَلَيْها .

لِذَلِكَ قَرَّرَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تَقْتُلَ مُحَمَّداً ﷺ ، وَأَحْضَرَتْ جَماعَةً مِنْ شُبّانِها الأَقْوِياءِ ، وَ وَقَفوا أَمامَ دارِ النَّبِيِّ ﷺ لِيَقْتُلوهُ . كانَ ذَلِكَ لَيْلَةَ الهِجْرَةِ – هِجْرَةِ الرَّسولِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إلى يَثْرِبَ (المَدينَة) .

وَكانَ الرَّسولُ ﷺ قَدْ أَمَرَ « عَلِيَّ بْنَ أَبي طالِبٍ » أَنْ يَبيتَ في فِراشِهِ . وَكُلَّما نَظَرَ شَبابُ قُرَيْشٍ الواقِفونَ أَمامَ بابِ الدّارِ – دارِ النَّبِيِّ ﷺ – إلى الدّاخِلِ مِنْ فُرْجَةِ البابِ ؛ وَجَدوا شَخْصاً نائِماً ، وَهُمْ يَظُنّونَ أَنَّهُ الرَّسولُ ﷺ .

وَلَكِنَّ الرَّسولَ ﷺ كانَ قَدْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنَ البابِ ، وَهُمْ واقِفونَ أمامَهُ ، وَنَثَرَ عَلَيْهِمُ التُّرابَ ، وَقالَ : « شاهَتِ الوُجوهُ .» وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَشْعُروا بِهِ ، وَلَمْ يَرَوْهُ . حَتّى إذا أَصْبَحَ الصَّباحُ ، نَظَرَ شَبابُ قُرَيْشٍ ، فَإذا النّائِمُ عَلِيُّ بْنُ أبي طالِبٍ ، وَإذا هُوَ يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ .

وَيَرْفَعُ الشَّبابُ مِنْ قُرَيْشٍ أَيْدِيَهُمْ إلى وُجوهِهِمْ وَرُءوسِهِمْ مِنْ شِدَّةِ الخِزْيِ وَالحَسْرَةِ، فَيَجِدونَ التُّرابَ فَوْقَها، وَيَعودونَ إلى قَوْمِهِمْ خاسِرينَ .

لَقَدْ نَجّى اللهُ مُحَمَّداً ﷺ مِنْ كَيْدِ الكافِرينَ ، وَخَرَجَ مُهاجِراً وَمَعَهُ صاحِبُهُ أبو بَكْرٍ ، وَ وَصَلا إلى غارِ ثَوْرٍ في طَريقِهِمْ إلى المَدينَةِ ، وَهُناكَ اخْتَبَأَ الرَّسولُ ﷺ وَصاحِبُهُ ؛ حَتّى يَسْكُتَ عَنْهُما الطَّلَبُ ؛ فَيَسيرا إلى المَدينَةِ .

وَأَخَذَتْ قُرَيْشٌ تَبْحَثُ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصاحِبِهِ أبي بَكْرٍ؛ تُريدُ أَنْ تُمْسِكَ بِهِما ، وَتُعيدَهُما إلى مَكَّةَ . وَخَرَجَتْ تَتَعَقَّبُهُما في الطَّريقِ إلى المَدينَةِ ، وَ وَصَلَ الكُفّارُ إلى غارِ ثَوْرٍ ، الَّذي يَخْتَبِئُ فيهِ الرَّسولُ وَصاحِبُهُ . وَقالَ أبو بَكْرٍ

لِلرَّسولِ ﷺ : « يا رَسولَ اللهِ ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَرَآنا .» فَقالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : « لا تَحْزَنْ ، إنَّ اللهَ مَعَنا .»

وَلَكِنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – كَلَّفَ بَعْضَ جُنودِهِ بِحِمايَةِ الرَّسولِ ﷺ وَصاحِبِهِ : أَمَرَ الحَمامَةَ أَنْ تَصْنَعَ لَها عُشا فَوْقَ مَدْخَلِ الغارِ ، وَتَبيضَ فيهِ ، وَأَمَرَ العَنْكَبوتَ أَنْ تَنْسِجَ خُيوطَها فَوْقَ بابِهِ .

نَظَرَ الكُفّارُ مِنْ قُرَيْشٍ إلى الحَمامَةِ وَبَيْضِها ، وَإلى العَنْكَبوتِ وَنَسْجِها ، وَقالوا : « إنَّ هَذا الغارَ لَمْ يَدْخُلْهُ أَحَدٌ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ .»

وَانْصَرَفوا راجِعينَ خاسِرينَ .

نَجّى اللهُ سَيِّدَنا مُحَمَّداً ﷺ ، وَرَدَّ عَنْهُ كَيْدَ الكافِرينَ ، وَصَدَقَ وَعْدَهُ ﴿ إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذينَ آمَنوا وَكانَ حَقّاً عَلَيْنا نَصْرُ المُؤْمِنينَ .﴾

وَبَلَغَ الرَّسولُ ﷺ وَصاحِبُهُ المَدينَةَ .

وَكانَ المُسْلِمونَ في المَدينَةِ مِنَ المُهاجِرينَ الَّذين كانوا يَسْكُنونَ مَكَّةَ ، وَهاجَروا إلى المَدينَةِ قَبْلَ هِجْرَةِ الرَّسولِ ، وَمِنَ الأَنْصارِ أَبْناءِ قَبيلَتَيِ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ ، الَّذين كانوا يَسْكُنونَ المَدينَةَ مِنْ قَبْلُ .

كانَ المُسْلِمونَ مِنْ هؤُلاءِ وَهؤُلاءِ يَخْرُجونَ كُلَّ يَوْمٍ إلى مَشارِفِ المَدينَةِ ، وَيَصْعَدُ بَعْضُهُمْ على النَّخيلِ ، وَيَتَطَلَّعونَ إلى قُدومِ الرَّسولِ وَصاحِبِهِ .

وَذاتَ يَوْمٍ انْتَظَرَ المُسْلِمونَ طَويلاً ، وَلَمْ يَظْهَرْ لِلرَّسولِ وَصاحِبِهِ أَثَرٌ ، فَأَخَذوا يَرْجِعونَ إلى المَدينَةِ . وَلكِنَّ واحِداً يَصيحُ : « لَقَدْ جاءَ الرَّسولُ وَصاحِبُهُ .» وَيُسْرِعُ المُسْلِمونَ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأَنْصارِ يَسْتَقْبِلونَ الرَّسولَ الكَريمَ، وَيُرَحِّبونَ بِهِ ، وَيَضْرِبونَ بِالدُّفوفِ ، وَيُنْشِدونَ :

طَلَعَ البَـدْرُ عَلَيْنا
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنا
أَيُّها المَبْعوثُ فينا
جِئْتَ شَرَّفْتَ المَدينَة

حَديثُ سُراقة

جُنَّ جُنونُ قُرَيْشٍ ، وَطاشَ لُبُّها – حينَ أَيْقَنَتْ أَنَّ مُحَمَّداً قَدْ أَفْلَتَ مِنْ قَبْضَتِها ، وَأَنْ بَحْثَها عَنْهُ كانَتْ عاقِبَتُهُ الفَشَلَ ؛ إِذْ لَمْ تَعْثُرْ لَهُ على أَثَرٍ . وَلكِنَّها لَمْ تَيْأَسْ ، وَراحَ شُيوخُها يُفَكِّرونَ في وَسيلَةٍ يُغْرونَ بِها الأَعْرابَ على تَتَبُّعِهِ ، وَالإِمْساكِ بِهِ؛ فَوَجَدوا أَنَّ أَفْضَلَ ما يُغْري الأَعْرابَ ، وَيَجْذِبُهُمْ نَحْوَ المُغامَرَةِ وَالمُخاطَرَةِ – هُوَ المالُ ؛ فَرَصَدوا جائِزَةً كَبيرَةً لِمَنْ يَأْتيهِمْ بِمُحَمَّدٍ حَيّاً أَوْ مَيِّتاً . كانَتْ هذِهِ الجائِزَةُ هِيَ مِائَةَ ناقَةٍ مِنْ كَرائِمِ الإِبِلِ !

وَبَيْنَما كانَ «سُراقَةُ بْنُ مالِكٍ» جالِساً في نادي قَوْمِهِ – جاءَهُمْ رَسولٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، يُعْلِنُ عَلَيْهِمْ خَبَرَ الجائِزَةِ الضَّخْمَةِ ، الَّتي جَعَلَتْها قُرَيْشٌ لِمَنْ يَأْتيها بِمُحَمَّدٍ حَيّاً أَوْ مَيِّتاً ؛ فَتَطَلَّعَ إِلَيْها « سُراقَةُ » ، وَطَمِحَتْ إِلَيْها نَفْسُهُ . إِنَّهُ لَوْ حَصَلَ عَلَيْها لأَصْبَحَ مِنَ الأَغْنِياءِ ، ذَوي المالِ وَالجاهِ .

وَلِماذا لا يَحْصُلُ عَلَيْها ؟ إنَّهُ فارِسٌ شُجاعٌ ، خَبيرٌ بِطُرُقِ الصَّحْراءِ وَدُروبِها ، عَليمٌ بِتَعَقُّبِ الأَثَرِ وَاقْتِفائِهِ – فَهُوَ خَيْرُ رَجُلٍ يَصْلُحُ لِهَذِهِ المُهِمَّةِ .

دارَتْ هَذِهِ الأَفْكارُ في رَأْسِ « سُراقَةَ » حينَ سَمِعَ نَبَأَ الجائِزَةِ ، وَكانَ يُفَكِّرُ في الطَّريقَةِ الَّتي يُخْفي بِها رَغْبَتَهُ عَنْ قَوْمِهِ ؛ حَتّى لا يُنافِسَهُ في الجائِزَةِ مُنافِسٌ . وَفي هَذِهِ اللَّحْظَةِ جاءَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ ، وَقالَ : « لَقَدْ صادَفْتُ في الطَّريقِ ثَلاثَةَ رِجالٍ ، أَظُنُّهُمْ مُحَمَّداً وَصاحِبَهُ وَدَليلَهُما . »

فَأَشارَ إِلَيْهِ « سُراقَةُ » بِطَرَفِ عَيْنَيْهِ أَنْ يَسْكُتَ ، وَقالَ : « إِنَّهُمْ بَنو فُلانٍ مِنْ قَوْمِنا ، ضَلَّتْ لَهُمْ ناقَةٌ فَخَرَجوا يَبْحَثونَ عَنْها . »

وَحينَ انْشَغَلَ الجالِسونَ بِأَحاديثَ أُخْرى غَيْرِ حَديثِ الجائِزَةِ – انْسَلَّ « سُراقَةُ » مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَذَهَبَ إِلى بَيْتِهِ ، وَأَمَرَ جارِيَتَهُ أَنْ تُخْرِجَ جَوادَهُ – كَأَنَّها تَذْهَبُ لِتَسْقِيَهُ – وَتَرْبُطَهُ بَعيداً عَنِ البُيوتِ ، هُناكَ في بَطْنِ الوادي . وَأَمَرَ غُلامَهُ أَنْ يَأْخُذَ سِلاحَهُ وَيَنْتَظِرَهُ بِهِ خارِجَ البُيوتِ ، قَريباً مِنَ

الجَوادِ .

انْطَلَقَ « سُراقَةُ » إِلى حَيْثُ يوجَدُ سِلاحُهُ وَجَوادُهُ ، فَتَقَلَّدَ سِلاحَهُ ، وَرَكِبَ جَوادَهُ ، وَمَضى يُغِذُّ السَّيْرَ ، وَيَشْتَدُّ فيهِ ؛ لِكَيْ يَلْحَقَ بِمُحَمَّدٍ وَصاحِبِهِ ، وَيَحْصُلَ عَلى المِائَةِ ناقَةٍ ، الَّتي سالَ إِلَيْها لُعابُهُ ، وَتَحَرَّقَتْ شَوْقاً إِلَيْها نَفْسُهُ . وَراحَتِ الأَمانِيُّ تُداعِبُهُ ، وَالخَيالاتُ تُحاوِرُهُ ، وَهُوَ يَجْري بِجَوادِهِ في دُروبِ الصَّحْراءِ ، الَّتي لَمْ يَتَعَوَّدِ النّاسُ سُلوكَها ؛ فَقَدْ أَدْرَكَ « سُراقَةُ » أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ وَصاحِبَهُ لَنْ يَسْلُكا طَريقاً مَعْهودَةً ، وَلَنْ يَسيرا في دَرْبٍ مَأْلوفٍ .

مَضى « سُراقَةُ » يَطْوي الطَّريقَ طَيّاً ، وَكانَ جَوادُهُ مِنَ الخَيْلِ الأَصيلَةِ ، يُعينُهُ عَلى السُّرْعَةِ ، وَيَسْتَجيبُ لِرَغْبَتِهِ ، وَلَكِنْ .. ما هَذا ؟ لَقَدْ عَثَرَ الجَوادُ ، وَسَقَطَ « سُراقَةُ » عَنْ ظَهْرِهِ !

تَشاءَمَ « سُراقَةُ » مِمّا حَدَثَ ، وَلَكِنَّهُ نَهَضَ مِنْ سَقْطَتِهِ ، وَاعْتَلى صَهْوَةَ جَوادِهِ ، وَلَكِنَّ الجَوادَ ما إِنْ يَمْضي قَليلاً في الطَّريقِ حَتّى يَعْثُرَ مَرَّةً أُخْرى ، وَيَسْقُطُ « سُراقَةُ »

الفارِسُ العَظيمُ الشَّأنِ ، مِنْ فَوْقِ ظَهْرِهِ !

يَزْدادُ تَشاؤُمُهُ ، وَيُفكِّرُ في الرُّجوعِ مِنْ حَيْثُ جاءَ ، وَلَكِنَّ النُّوقَ المِائَةَ تَتَراءى لِخَيالِهِ ، فَيَتَغَلَّبُ على تَشاؤُمِهِ ، وَيَزْدادُ حِرْصُهُ على الحُصولِ عَلَيْها ، فَيَنْهَضُ مِنْ سَقْطَتِهِ ، وَيَمْتَطي صَهْوَةَ جَوادِهِ ، وَيَنْطَلِقُ في طَريقِهِ .

لَمْ يَبْتَعِدْ « سُراقَةُ » كَثيراً عَنِ المَكانِ الَّذي عَثَرَ فيهِ جَوادُهُ ، وَإذا هُوَ يُبْصِرُ مُحَمَّداً وَصاحِبَهُ وَالدَّليلَ . تَراقَصَ أمامَ عَيْنَيْهِ خَيالُ النُّوقِ المِائَةِ ، إنَّهُ يَكادُ يُمْسِكُها بِيَدِهِ . وَلَكِنْ ما هَذا الَّذي يَحْدُثُ ؟ لَقَدْ مَدَّ يَدَهُ إلى قَوْسِهِ فَإذا هِيَ تَجْمُدُ وَلا تَتَحَرَّكُ. إنَّ قَوائِمَ جَوادِهِ تَغوصُ في الأرْضِ . إنَّ الدُّخانَ يَتَصاعَدُ أمامَ الجَوادِ، فَيُغَطِّي عَيْنَيْهِ وَعَيْنَ الجَوادِ. إنَّ جَوادَهُ قَدْ سُمِّرَ في الأرْضِ فَلا يَسْتَطيعُ تَقَدُّماً وَلا تَراجُعاً .

« ما هَذا يا سُراقَةُ ؟ لَقَدْ جِئْتَ تَبْحَثُ عَنْ جائِزَةٍ سَنِيَّةٍ ، فَإذا أنْتَ تَضيعُ في الصَّحْراءِ ! ماذا تَفْعَلُ الآنَ يا سُراقَةُ ؟ إنَّكَ لا تَسْتَطيعُ المُضِيَّ إلى الأمامِ فَتَلْحَقَ بِمُحَمَّدٍ

وَصاحِبِهِ ، وَلا تَسْتَطيعُ الرُّجوعَ إلى الوَراءِ فَتَنْجُوَ بِنَفْسِكَ . إنَّ جَوادَكَ قَدْ شُدَّ بِالحَديدِ إلى الأرْضِ . وَيْلٌ لَكَ ، يا سُراقَةُ !»

هَكَذا كانَ « سُراقَةُ » يَقولُ لِنَفْسِهِ ، وَلا يَدْري ماذا يَصْنَعُ ؟

أخيراً نادى بِأعْلى صَوْتِهِ ضارِعاً مُسْتَغيثاً : « يا مُحَمَّدُ ، ادْعُ لي رَبَّكَ ، وَسَأعودُ مِنْ حَيْثُ أتَيْتُ .»

فَدَعا لَهُ الرَّسولُ ﷺ ، وَأطْلَقَ اللهُ قَوائِمَ جَوادِهِ ، وَأصْبَحَ حُرًّا ، يَسْتَطيعُ الحَرَكَةَ .

وَلَكِنْ .. ما هَذا ؟ لَقَدْ تَحَرَّكَتْ أطْماعُ « سُراقَةَ » ، وَاسْتَوْلَتْ عَلى نَفْسِهِ ؛ فَغَدا لا يُبْصِرُ شَيْئاً غَيْرَ النُّوقِ المِائَةِ – فَدَفَعَ جَوادَهُ في الطَّريقِ نَحْوَ الرَّسولِ ﷺ وَصاحِبِهِ ، لَقَدْ حَنَثَ في عَهْدِهِ ، وَلَمْ يَفِ بِكَلِمَتِهِ !

وَإذا بِقَوائِمِ جَوادِهِ تَغوصُ في الأرْضِ أكْثَرَ مِمّا كانَتْ في المَرَّةِ الفائِتَةِ ، وَإذا هُوَ يَرْتَعِدُ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ وَالجَزَعِ ،

وَإذا هُوَ يُبْصِرُ بِعَيْنَيْهِ هلاكَهُ في هَذِهِ الصَّحْراءِ الواسِعَةِ . وَلَمْ يَجِدْ أمامَهُ مِنْ وَسيلَةٍ لِلنَّجاةِ غَيْرَ أنْ يَسْتَغيثَ بِالرَّسولِ ﷺ مَرَّةً أخْرى ، فَقالَ : « يا مُحَمَّدُ ، خُذْ زادي وَسِلاحي ، وَادْعُ رَبَّكَ يُطْلِقْ سَراحَ جَوادي . »

أجابَهُ أبو بَكْرٍ على لِسانِ الرَّسولِ الكَريمِ : « لا حاجَةَ بِنا إلى زادِكَ ، وَلا إلى سِلاحِكَ ، وَلَكِنِ ارْجِعْ فَخَذِّلِ النَّاسَ عَنّا . »

وَدَعا لَهُ الرَّسولُ ﷺ فانْطَلَقَتْ قَوائِمُ جَوادِهِ .

تَهَيَّأَ « سُراقَةُ » لِلرُّجوعِ إلى دِيارِ قَوْمِهِ ، وَلَكِنَّهُ نادى وَقالَ : « يا مُحَمَّدُ ، أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ سَيُظْهِرُ دينَكَ ، وَأَنَّ أَمْرَكَ سَيَعْلو ، وَأَنَّ شَأْنَكَ سَيَرْتَفِعُ – فَعاهِدْني إنْ جِئْتُكَ في مُلْكِكَ أنْ تُكْرِمَني . »

أجابَهُ الرَّسولُ ﷺ : « لَكَ ذَلِكَ . »

قالَ سُراقَةُ : « فاكْتُبْ لي بِذَلِكَ كِتاباً . »

فَأَمَرَ الرَّسولُ ﷺ أبا بَكْرٍ أنْ يَكْتُبَ لَهُ كِتاباً بِذَلِكَ ،

فَكَتَبَ لَهُ الصِّدّيقُ على لَوْحٍ مِنَ العَظْمِ ، وَدَفَعَهُ إلَيْهِ .

وَحينَ هَمَّ « سُراقَةُ » بِالانْصِرافِ، قالَ لَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ : « كَيْفَ بِكَ ، يا سُراقَةُ ، إذا لَبِسْتَ سِوارَ كِسْرى ؟ »

اتَّسَعَتْ عَيْنا سُراقَةَ مِنَ الدَّهْشَةِ ، وَبَدا عَلَيْهِ الذُّهولُ ، وَقالَ : « كِسْرى بْنُ هُرْمُزَ ، مَلِكُ الفُرْسِ ؟ »

أجابَهُ الرَّسولُ ﷺ : « نَعَمْ . »

عادَ « سُراقَةُ » إلى قَوْمِهِ، وَكانَتِ الأفْكارُ تَدورُ في ذِهْنِهِ، وَالعَجَبُ وَالدَّهْشَةُ يُسَيْطِرانِ على قَلْبِهِ ؛ مِنْ أمْرِ هَذِهِ الجائِزَةِ الَّتي وَعَدَهُ بِها مُحَمَّدٌ ، وَلَمْ يُفِقْ مِنْ دَهْشَتِهِ إلا على أصْواتِ النّاسِ الَّذينَ أقْبَلوا يَبْحَثونَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَصاحِبِهِ ؛ طَمَعًا في الجائِزَةِ السَّنِيَّةِ الَّتي رَصَدَتْها قُرَيْشٌ ، فَقالَ لَهُمْ : « لا تُتْعِبوا أنْفُسَكُمْ في البَحْثِ ؛ فَقَدْ ذَرَعْتُ الأرْضَ كُلَّها – وَأنْتُمْ تَعْرِفونَ خِبْرَتي بِالصَّحْراءِ وَدُروبِها – فَلَمْ أجِدْ لَهُما أثَرًا . »

فَرَجَعَ النّاسُ ، وَانْصَرَفوا عَنِ البَحْثِ . وَكَتَمَ « سُراقَةُ »

خَبَرَهُ مَعَ الرَّسولِ ﷺ حَتّى اطْمَأَنَّ إلى أنَّهُ قَدْ بَلَغَ المَدينَةَ ، وَلَقِيَ أصْحابَهُ ، وَأصْبَحَ في مَنَعَةٍ وَعِزَّةٍ – حينَئِذٍ أفْصَحَ « سُراقَةُ » عَمّا دارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَلَمّا بَلَغَ ذَلِكَ « أبا جَهْلٍ » لامَ « سُراقَةَ » عَلى تَخاذُلِهِ وَجُبْنِهِ ، وَ وَبَّخَهُ عَلى تَفْويتِ الفُرْصَةِ الَّتي سَنَحَتْ ، وَتَضْييعِ الجائِزَةِ الَّتي رُصِدَتْ .

نَظَرَ إلَيْهِ « سُراقَةُ » في تَعَجُّبٍ وَأسًى ، ثُمَّ قالَ لَهُ : « لَوْ كُنْتَ رَأيْتَ ، يا أبا الحَكَمِ ، قَوائِمَ جَوادي ، وَهِيَ تَغوصُ في الأرْضِ – لَعَرَفْتَ أنَّ مُحَمَّداً نَبِيٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، لا يَسْتَطيعُ أحَدٌ مُقاوَمَتَهُ . »

وَمَرَّتِ الأيّامُ ، وَفَتَحَ اللهُ مَكَّةَ عَلى المُسْلِمينَ ، وَدَخَلَها رَسولُ اللهِ ﷺ مُتَواضِعاً خاشِعاً ، وَهُوَ يُسَبِّحُ رَبَّهُ وَيَسْتَغْفِرُهُ ، وَيَحْمَدُهُ عَلى ما أجْراهُ عَلى يَدَيْهِ مِنْ نَصْرٍ . وَأقْبَلَ الَّذينَ أخْرَجوهُ مِنْ مَكَّةَ بِالأمْسِ – أقْبَلوا عَلَيْهِ مُسْرِعينَ ، يَلْتَمِسونَ العَفْوَ والسَّماحَ ، وَيَقولونَ لَهُ : « أنْتَ أخٌ كَريمٌ

وَابْنُ أخٍ كَريمٍ . »

وَالرَّسولُ ﷺ يَقولُ لَهُمْ : « اذْهَبوا فَأنْتُمُ الطُّلَقاءُ . »

وَأقْبَلَ « سُراقَةُ » يَشُقُّ صُفوفَ النّاسِ ، حَتّى أصْبَحَ قَريباً مِنَ الرَّسولِ ﷺ وَهُوَ عَلى ناقَتِهِ ، فَقالَ : « يا رَسولَ اللهِ ، أنا سُراقَةُ بْنُ مالِكٍ . هَذا كِتابُكَ لي . »

فَقالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : « أُدْنُ يا سُراقَةُ ، أُدْنُ مِنّي . هَذا يَوْمُ بِرٍّ وَ وَفاءٍ . »

وَأعْطاهُ ﷺ مِنْ فَضْلِ اللهِ .

وَلَمْ تَمْضِ غَيْرُ سَنَواتٍ مَعْدودَةٍ عَلى هَذا اللِّقاءِ – حَتّى انْتَقَلَ الرَّسولُ الكَريمُ إلى الرَّفيقِ الأعْلى ؛ فَحَزِنَ « سُراقَةُ » حُزْناً شَديداً ، وَكانَ يَقولُ في نَفْسِهِ : « هَذا الَّذي هَمَمْتُ بِقَتْلِهِ ذاتَ يَوْمٍ مِنْ أجْلِ مِائَةِ ناقَةٍ ! إنَّ الدُّنْيا كُلَّها لا تُساوي قُلامَةَ ظُفْرِهِ . هَذا رَسولُ اللهِ الَّذي وَعَدَني سِوارَيْ كِسْرى . »

وَلَمْ يُخالِجْ « سُراقَةَ » شَكٌّ في أنَّ ما وَعَدَهُ بِهِ الرَّسولُ

ﷺ سَيَتَحَقَّقُ ، وَأَنَّ اللهَ – عَزَّ وَ جَلَّ – لَنْ يَقْبِضَهُ إِلَيْهِ حَتَّى يَلْبَسَ السِّوارَيْنِ ، كَما وَعَدَهُ الرَّسولُ الكَريمُ .

وَتَدورُ الأَيّامُ ، وَيَتَوَلَّى أَمْرَ المُسْلِمينَ الفاروقُ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ ، وَتَهُزُّ جُيوشُ المُسْلِمينَ عَرْشَ كِسْرَى ، وَتُرْسِلُ الغَنائِمَ إِلى الخَليفَةِ في المَدينَةِ ، وَفيها تاجُ كِسْرى وَسِوارَاهُ!

وَيَبْعَثُ أَميرُ المُؤْمِنينَ عُمَرُ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) في طَلَبِ سُراقَةَ . فَلَمّا مَثَلَ « سُراقَةُ » بَيْنَ يَدَيِ الخَليفَةِ ، وَضَعَ الفاروقُ عُمَرُ تاجَ كِسْرَى فَوْقَ رَأْسِ « سُراقَةَ » ، وَأَلْبَسَهُ السِّوارَيْنِ في يَدَيْهِ ، وَحينَئِذٍ هَتَفَ المُسْلِمونَ : « اللهُ أَكْبَرُ. اللهُ أَكْبَرُ .»

وَنَظَرَ عُمَرُ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) إِلى « سُراقَةَ » ، وَإِلى مَنْ حَوْلَهُ ، وَقالَ : « صَدَقْتَ ، يا رَسولَ اللهِ . صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ وَسَلَّمَ .»

الرَّسولُ في المَدينَةِ

فَرِحَ المُسْلِمونَ بِمَقْدَمِ الرَّسولِ ﷺ ، وَسَعِدوا بِوُصولِهِ ، وَكانَ كُلُّ واحِدٍ مِنَ الأَنْصارِ يَتَمَنَّى أَنْ يَنْزِلَ الرَّسولُ في بَيْتِهِ ، وَراحَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يُحاوِلُ أَنْ يَقودَ ناقَةَ الرَّسولِ نَحْوَ دارِهِ ، وَلَكِنَّ الرَّسولَ ﷺ أَمَرَهُمْ أَنْ يَتْرُكوها تَمْشي وَحْدَها ؛ فَإِنَّ اللهَ أَلْهَمَها المَكانَ الَّذي تَبْرُكُ فيهِ .

وَمَشَتِ النّاقَةُ ، وَرَسولُ اللهِ ﷺ فَوْقَها ، وَالمُسْلِمونَ مِنْ حَوْلِها ، وَكُلُّهُمْ يَنْتَظِرُ أَيْنَ سَتَبْرُكُ النّاقَةُ ؟

فَلَمّا بَرَكَتِ النّاقَةُ وَضَعوا عَنْها رَحْلَها ، وَسَأَلَ الرَّسولُ ﷺ عَنْ صاحِبِ هَذا المَكانِ ، وَاشْتَراهُ مِنْهُ .

وَفي هَذا المَكانِ بَنَى الرَّسولُ ﷺ المَسْجِدَ ؛ لِيَجْمَعَ المُسْلِمينَ لِلصَّلاةِ ، وَيُوَحِّدَ مَشاعِرَهُمْ وَقُلوبَهُمْ ، وَلِيُعَلِّمَهُمُ الرَّسولُ ﷺ أُمورَ الدّينِ ، وَطَريقَةَ الدَّعْوَةِ إِلى اللهِ ، وَلِيَتَشاوَروا في جَميعِ أُمورِهِمْ .

وَكانَ الرَّسولُ ﷺ يُشارِكُ المُسْلِمينَ في بِناءِ المَسْجِدِ : يَحْمِلُ مَعَهُمُ التُّرابَ وَالأَحْجارَ ، وَلا يَتَميَّزُ عَنْهُمْ ، بَلْ هُوَ واحِدٌ مِنْهُمْ في كُلِّ ما يَقومونَ بِهِ مِنْ أَعْمالٍ .

وَآخى الرَّسولُ ﷺ بَيْنَ المُهاجِرينَ وَالأَنْصارِ : فَجَعَلَ لِكُلِّ واحِدٍ مِنَ الأَنْصارِ أَخاً مِنَ المُهاجِرينَ .

فَكانَ الأَنْصارِيُّ يَأْخُذُ أَخاهُ المُهاجِرَ إِلى بَيْتِهِ ، وَيَضَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ أَمْوالَهُ ، وَ يَقْسِمُها بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، وَيَقولُ لَهُ : « اِخْتَرِ النِّصْفَ الَّذي يُعْجِبُكَ . »

وَلَكِنَّ المُهاجِرينَ امْتَنَعوا عَنْ أَخْذِ الأَمْوالِ ، وَاتَّجَهوا إِلى العَمَلِ وَالتِّجارَةِ – فَأَهْلُ مَكَّةَ بِها مَعْروفونَ مَشْهورونَ .

وَقَدْ مَدَحَ اللهُ الأَنْصارَ ، وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ يُحِبّونَ إِخْوانَهُمُ المُهاجِرينَ ، وَيُفَضِّلونَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ : ﴿ وَالَّذينَ تَبَوَّءوا الدّارَ وَالإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدونَ في صُدورِهِمْ حاجَةً مِمّا أوتوا وَيُؤْثِرونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأولَئِكَ هُمُ المُفْلِحونَ .﴾

وَكانَ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ عَداوَةٌ شَديدَةٌ ، وَحُروبٌ كَثيرَةٌ ، بِسَبَبِ دَسائِسِ اليَهودِ بَيْنَهُما ، حَتّى أَكْرَمَهُمُ اللهُ بِالإِسْلامِ ، وَهاجَرَ إِلَيْهِمُ الرَّسولُ ﷺ ، فَتَآلَفَتْ قُلوبُهُمْ ، وَصَفَتْ نُفوسُهُمْ ، وَزالَ ما كانَ بَيْنَهُمْ مِنْ عَداوَةٍ ، وَأَصْبَحوا جَميعاً – بِنِعْمَةِ اللهِ – إِخْوانًا .

ثُمَّ الْتَفَتَ الرَّسولُ ﷺ إِلى القَبائِلِ اليَهودِيَّةِ الَّتي تُساكِنُهُمُ المَدينَةَ ، فَعَقَدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَهْداً : لِلْيَهودِ دينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمينَ دينُهُمْ ، وَاليَهودُ آمِنونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ ، وَكَذَلِكَ لا يَعْتَدي اليَهودُ عَلى المُسْلِمينَ . وَإِذا حاوَلَ أَحَدٌ الاعْتِداءَ عَلى المَدينَةِ دافَعوا عَنْها جَميعًا : المُسْلِمونَ وَاليَهودُ . وَلا يُساعِدُ اليَهودُ أَعْداءَ المُسْلِمينَ .

وَبِذَلِكَ اسْتَقَرَّتِ الأُمورُ في المَدينَةِ ، وَتَكَوَّنَتْ أَوَّلُ دَوْلَةٍ لِلإِسْلامِ وَالمُسْلِمينَ ، وَ تَفَرَّغَ الرَّسولُ ﷺ لِتَرْبِيَةِ المُسْلِمينَ وَتَعْليمِهِمْ ، وَ لِلْعَمَلِ عَلى نَشْرِ الدَّعْوَةِ الإِسْلامِيَّةِ .

غَزْوَةُ بَدْر

هاجَرَ الرَّسولُ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إلى المَدينَةِ ، وَهاجَرَ المُسْلِمونَ مِنْ قَبْلِهِ ، وَتَرَكوا دِيارَهُمْ وَأَموالَهُمْ - فَاسْتَوْلى عَلَيْها المُشْرِكونَ. وَفي المَدينَةِ أَسَّسَ الرَّسولُ ﷺ الدَّوْلَةَ الإِسْلامِيَّةَ ، وَأَخَذَ يَبْني قَواعِدَها ، وَيُنَظِّمُ أُمورَها ؛ لِيَنْطَلِقَ المُسْلِمونَ مِنْها إلى نَشْرِ دينِهِمْ في بِقاعِ الأَرْضِ .

وَفي أَثْناءِ ذَلِكَ وَصَلَ إلى عِلْمِ الرَّسولِ ﷺ أَنَّ قافِلَةً كَبيرَةً لِقُرَيْشٍ ، مَمْلوءَةً بِالسِّلَعِ التِّجارِيَّةِ ، في طَريقِ عَوْدَتِها مِنْ الشَّامِ إلى مَكَّةَ ، وَيَقودُ هَذِهِ القافِلَةَ الضَّخْمَةَ أَبو سُفْيانَ ، وَمَعَهُ أَرْبَعونَ رَجُلاً يَحْرُسونَها .

دَعا الرَّسولُ ﷺ المُسْلِمينَ إلى الخُروجِ لِمُلاقاةِ القافِلَةِ ، واعْتِراضِ طَريقِها ، وَالاسْتيلاءِ عَلَيْها ، حَتَّى يَكونَ ذَلِكَ ضَرْبَةً قَوِيَّةً لِقُرَيْشٍ في قُوَّتِها الاقْتِصادِيَّةِ وَتَكونَ هَذِهِ الأَمْوالُ تَعْويضاً عَمّا أَخَذَهُ المُشْرِكونَ مِنَ المُسْلِمينَ ، وَحَتَّى

تَشْعُرَ قُرَيْشٌ بِأَنَّ طَريقَ قَوافِلِها لَيْسَتْ آمِنَةً كَما كانَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَأَنَّ المُسْلِمينَ أَصْبَحوا قُوَّةً قادِرَةً على تَخْويفِ قُرَيْشٍ ، وَتَهْديدِ سَلامَةِ تِجارَتِها .

خَرَجَ الرَّسولُ ﷺ وَالمُسْلِمونَ لاعْتِراضِ سَبيلِ القافِلَةِ ، وَعَرَفَ أبو سُفْيانَ بِخُروجِهِمْ ، فَأَرْسَلَ إلى قُرَيْشٍ في مَكَّةَ رَجُلاً ، يُخْبِرُها بِأَنَّ قافِلَتَها وَأَمْوالَها في خَطَرٍ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحابِهِ . فَما كانَ مِنْ قُرَيْشٍ إِلا أَنِ اسْتَعَدَّتْ لِلدِّفاعِ عَنْ وُجودِها وَمالِها ، وَتَجَهَّزَتْ لِحِمايَةِ قافِلَتِها ، وَالانْتِقامِ مِنَ المُسْلِمينَ الَّذينَ ظَنُّوا في أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ يَقِفونَ في طَريقِ قافِلَةِ قُرَيْشٍ.

وَلَكِنَّ « أبو سُفْيانَ » اسْتَطاعَ أَنْ يُغَيِّرَ الطَّريقَ الَّتي كانَتْ تَسْلُكُها القَوافِلُ ، وَمَشى في طَريقٍ أُخْرى ، تَبْتَعِدُ بِها القافِلَةُ عَنِ المَدينَةِ ، وَأَرْسَلَ إلى قُرَيْشٍ رَجُلا يُخْبِرُها بِنَجاةِ القافِلَةِ .

قالَ بَعْضُ قادَةِ قُرَيْشٍ حينَ عَرَفوا خَبَرَ نَجاةِ القافِلَةِ : « لا داعِيَ لِقِتالِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحابِهِ ؛ فَقَدْ نَجَتْ قافِلَتُنا ،

الَّتي خَرَجْنا مِنْ أجْلِها ، وَيَجِبُ أَنَّ نَعودَ الآنْ إلى مَكَّةَ .»

قالَ أبو جَهْلٍ : « لا ، وَرَبِّ الكَعْبَةِ ! لا يُمْكِنُ أنْ نَعودَ حَتّى نَصِلَ إلى ماءِ بَدْرٍ ، وَنُقيمَ عِنْدَهُ ثَلاثَةَ أيّامٍ : نَذْبَحُ الإبِلَ ، وَنَطْهو الطَّعامَ ، وَنَشْرَبُ الخَمْرَ ، وَتُغَنّي لَنا الجَواري ، إلا إذا كُنْتُمْ تَخافونَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحابِهِ ، وَتَجْبُنونَ عَنْ لِقائِهِمْ . لا بُدَّ أنْ تَعْرِفَ القَبائِلُ العَرَبِيَّةُ قُوَّتَنا ، وَتَعْرِفَ أَنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أحَدٌ أنْ يَعْتَرِضَ طَريقَ القَوافِلِ القُرَشِيَّةِ .»

وَعَرَفَ الرَّسولُ ﷺ وَالمُسْلِمونَ مَعَهُ أنَّ قافِلَةَ قُرَيْشٍ قَدْ غَيَّرَتْ طَريقَها ، وَأَنَّها نَجَتْ ، وَأَنَّ المُشْرِكينَ بِقِيادَةِ « أبو جَهْلٍ » قَدْ خَرَجوا لِحَرْبِهِمْ ، وَأَنَّ عَدَدَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ المُسْلِمينَ .

نَزَلَ المُسْلِمونَ في مَكانٍ قَريبٍ مِنْ بِئْرِ بَدْرٍ ، كانَ عَدَدُهُمْ يَقْرُبُ مِنْ ثَلاثِمائَةٍ ، سِلاحُهُمْ قَليلٌ ، وَطَعامُهُمْ قَليلٌ . وَكانَ عَدَدُ المُشْرِكينَ يَقْرُبُ مِنَ الألْفِ ، سِلاحُهُمْ كَثيرٌ ، وَطَعامُهُمْ كَثيرٌ .

قالَ الرَّسولُ ﷺ لِلْمُسْلِمينَ : « أشيروا عَلَيَّ أيُّها النّاسُ .»

وَقَفَ أبو بَكْرٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ، وَ وَقَفَ عُمَرُ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ، وَ وَقَفَ غَيْرُهُمْ مِنَ المُهاجِرينَ ، وَكُلُّهُمْ يُؤَيِّدُ لِقاءَ المُشْرِكينَ وَقِتالَهُمْ ؛ فَإنَّ اللهَ - سُبْحانَهُ - قَدْ وَعَدَ رَسولَهُ إحْدى الطّائِفَتَيْنِ : إمّا القافِلَةَ ، وَإمّا الانْتِصارَ عَلى المُشْرِكينَ .

اِسْتَمَعَ الرَّسولُ ﷺ لِهَذِهِ الأقْوالِ ، وَلَكِنَّهُ يَقولُ مَرَّةً أخْرى : « أشيروا عَلَيَّ أيُّها النّاسُ .»

وَقَفَ زَعيمُ الأنْصارِ سَعْدُ بْنُ مُعاذٍ ، وَ كانَ مُعْظَمُ الجَيْشِ الإسْلامِيِّ مِنَ الأنْصارِ - وَقَفَ سَعْدٌ وَقالَ : « كَأَنَّكَ تَعْنينا ، يا رَسولَ اللهِ .»

قالَ الرَّسولُ ﷺ : « نَعَمْ .»

قالَ سَعْدٌ : « لَقَدْ بايَعْناكَ عَلى اليُسْرِ وَالعُسْرِ . وَاللهِ ، لَوْ خُضْتَ بِنا هَذا البَحْرَ لَخُضْناهُ مَعَكَ . اِمْضِ لِما أمَرَكَ اللهُ بِهِ .»

فَرِحَ رَسولُ اللهِ ﷺ بِمَقالَةِ سَعْدٍ ، وَبَدَأَ في تَنْظيمِ الجَيْشِ ، وَالاسْتِعْدادِ لِلْمَعْرَكَةِ ، لَكِنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصارِ اسْمُهُ « الحُبابُ بْنُ المُنْذِرِ » يَسْتَأْذِنُ في الحَديثِ ، وَيَقولُ : « يا رَسولَ اللهِ ، إنَّ هَذا المَكانَ الَّذي نَحْنُ فيهِ لا يَصْلُحُ مَوْقِعًا لِلْقِتالِ ، فَهَلْ نَحْنُ فيهِ بِوَحْيٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ ؟ »

أَجابَ الرَّسولُ ﷺ بِما مَعْناهُ : « لَقَدِ اخْتَرْتُ هَذا المَكانَ لأَنِّي رَأَيْتُهُ صالِحًا لِلْمَعْرَكَةِ ، وَلَمْ يَأْتِني الوَحْيُ فيهِ بِشَيْءٍ . »

قالَ الحُبابُ ، وَكانَ رَجُلاً خَبيرًا بِالمَعارِكِ وَالأَماكِنِ : « إِذًا ، هَذا المَكانُ لا يَصْلُحُ لِلْمَعْرَكَةِ . يَجِبُ أَنْ نَذْهَبَ وَنَنْزِلَ عِنْدَ بِئْرِ بَدْرٍ ، فَتَكونُ كُلُّ الآبارِ خَلْفَنا ، فَنَرْدِمُها ، وَحينَئِذٍ نَقْطَعُ عَنْ قُرَيْشٍ الماءَ ، فَنَشْرَبُ نَحْنُ ، وَلا تَجِدُ هِيَ الماءَ الَّذي تَشْرَبُهُ . »

اِسْتَمَعَ الرَّسولُ ﷺ إلى هَذا الرَّجُلِ الخَبيرِ ، وَأَمَرَ الجَيْشَ بِالتَّحَرُّكِ لِتَنْفيذِ ما أَشارَ بِهِ الحُبابُ بْنُ المُنْذِرِ .

جاءَ اللَّيْلُ ، وَنامَ المُسْلِمونَ لِيَسْتَعِدُّوا لِلْمَعْرَكَةِ ، وَفي

الصَّباحِ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَطَرًا خَفيفًا ، اغْتَسَلوا مِنْهُ وَشَرِبوا ، وَثَبَّتَ الرِّمالَ تَحْتَ أَقْدامِهِمْ .

بَنى المُسْلِمونَ عَريشًا مِنَ الشَّجَرِ ، لِيَجْلِسَ فيهِ الرَّسولُ ﷺ ، وَكانَ (صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلامُهُ) يَدْعو اللهَ ، وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ ، وَيَقولُ : « اللَّهُمَّ نَصْرَكَ الَّذي وَعَدْتَ . »

وَيَنْظُرُ إلى المُسْلِمينَ وَيَقولُ : « اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ جِياعٌ فَأَطْعِمْهُمْ ، عُراةٌ فاكْسُهُمْ . »

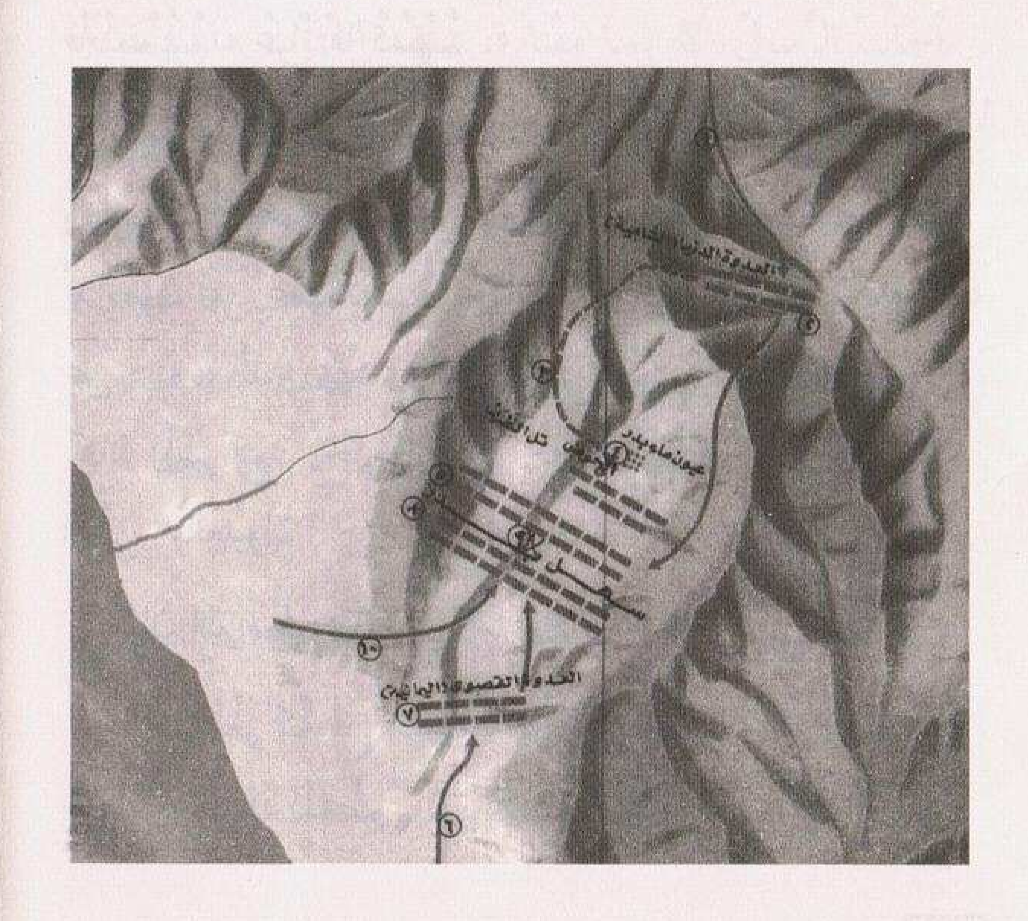
بَدَأَتِ المَعْرَكَةُ بَيْنَ المُسْلِمينَ - وَهُمْ قِلَّةٌ في العَدَدِ - وَالمُشْرِكينَ وَهُمْ كَثْرَةٌ في العَدَدِ - وَلَكِنَّ المُسْلِمينَ كانوا يُدافِعونَ عَنْ عَقيدَتِهِمْ ، وَكانَ اللهُ مَعَهُمْ ، لأَنَّهُمْ يُدافِعونَ عَنْ دينِهِ ، الَّذي يَهْدي النّاسَ إلى الخَيْرِ وَالرَّشادِ ، في حينِ كانَ المُشْرِكونَ يُحارِبونَ مِنْ أَجْلِ الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ ، وَسَيْطَرَةِ البَغْيِ وَالعُدْوانِ .

كانَ اللهُ مَوْلى المُؤْمِنينَ أَمّا الكافِرونَ فَلا مَوْلى لَهُمْ !

دارَتِ المَعْرَكَةُ في صَبيحَةِ يَوْمِ الجُمُعَةِ السّابِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضانَ المُعَظَّمِ ، مِنَ السَّنَةِ الثّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ . وَبَرَزَتْ

فيها بُطولاتٌ رائِعةٌ مِنَ المُسْلِمينَ ؛ فَقَدْ سَمِعَ «عُمَيْرُ بْنُ الحِمامِ» رَسولَ اللهِ يَقولُ : «ما يُقاتِلُهُمُ اليَوْمَ رَجُلٌ وَيُسْتَشْهَدُ إلا دَخَلَ الجَنَّةَ .» وكانَ في يَدِ «عُمَيْرٍ» تَمراتٌ يَأكُلُها ، فَرَمى بِالتَّمراتِ مِنْ يَدِهِ ، وَقالَ : «أَلَيْسَ بَيْني وَبَيْنَ الجَنَّةِ إلا هَذِهِ التَّمراتُ ؟»

ثُمَّ دَخَلَ المَعْرَكَةَ فَقاتَلَ حَتّى اسْتُشْهِدَ .



انْتَهَتِ المَعْرَكَةُ بِنَصْرِ المُسْلِمينَ ، وَهَزيمَةِ المُشْرِكينَ ، وَقُتِلَ فيها سَبْعونَ مِنْ أَشْرافِهِمْ وَسادَتِهِمْ ، مِنْهُمْ «أبو جَهْلٍ» الَّذي كانَ يُؤْذي المُسْلِمينَ وَيُعَذِّبُهُمْ في مَكَّةَ . وَأَسَرَ المُسْلِمونَ سَبْعينَ مِنْ سادَةِ قُرَيْشٍ وَأَشْرافِها كَذَلِكَ .

عادَ الرَّسولُ ﷺ وَالمُسْلِمونَ إلى المَدينَةِ ، وَهِيَ عامِرَةٌ بِفَرْحَةِ النَّصْرِ ، وَدَخَلَ المَسْجِدَ فَصَلّى رَكْعَتَيْنِ ؛ شُكْراً للهِ عَلى ما أَجْراهُ عَلى أَيْدي المُسْلِمينَ مِنْ نَصْرٍ وَعِزَّةٍ ، ثُمَّ عَرَّجَ عَلى بَيْتِ فاطِمَةَ الزَّهْراءِ ؛ فَقَدْ كانَ أَوَّلَ بَيْتٍ يَبْدَأُ بِهِ ، فَوَجَدَها تَسُحُّ الدُّموعَ حُزْناً عَلى أُخْتِها رُقَيَّةَ ، الَّتي انْتَقَلَتْ إلى الرَّفيقِ الأَعْلى في غِيابِهِ ، وَجَعَلَ ﷺ يَمْسَحُ دُموعَ الزَّهْراءِ بِطَرَفِ ثَوْبِهِ !

لَقَدْ صَدَقَ اللهُ المُسْلِمينَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَهُم عَلى عَدُوِّهِمْ ، وَأَعْطاهُمْ غَنائِمَ كَثيرَةً ، وَأَسْرى كَثيرينَ ؛ فَكانَ ذَلِكَ خَيْراً لِلْمُسْلِمينَ مِنَ الاسْتيلاءِ عَلى القافِلَةِ .

أَمَرَ الرَّسولُ ﷺ المُسْلِمينَ أَنْ يُكْرِموا الأَسْرى ،

فَيُطْعِموهُمْ مِنْ طَعامِهِمْ ، وَيُلْبِسوهُمْ مِنْ ثِيابِهِمْ حَتّى يَنْظُرَ في أَمْرِهِمْ .

شاوَرَ الرَّسولُ ﷺ أَصْحابَهُ : « ماذا نَصْنَعُ في الأَسْرى ؟ »

قالَ أبو بَكْرٍ وَبَعْضُ المُسْلِمين : « نَأْخُذُ مِنْهُمُ الفِداءَ ، نَسْتَعينُ بِهِ عَلى ظُروفِنا ، وَلَعَلَّ اللهَ يُخرِجُ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ . »

قالَ عُمَرُ : « نَقْتُلُهُمْ جَميعاً ، وَلا نَقْبَلُ مِنْهُمُ الفِداءَ . »

أَخَذَ الرَّسولُ ﷺ بِرَأْيِ « أبو بَكْرٍ » وَمَنْ مَعَهُ ، وَجَعَلَ فِداءَ مَنْ يَعْرِفُ القِراءَةَ وَالكِتابَةَ مِنَ الأَسْرى أَنْ يُعَلِّمَ عَشَرَةً مِنْ صِبْيانِ المُسْلِمينَ القِراءَةَ وَالكِتابَةَ ، وَذَلِكَ حَتّى تَنْتَشِرَ بَيْنَ المُسْلِمينَ ، وَيَكْثُرَ فيهِمْ مَنْ يَعْرِفُ القِراءَةَ وَالكِتابَةَ .

وَلَكِنَّ القُرْآنَ الكَريمَ نَزَلَ يُوافِقُ رَأْيَ عُمَرَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ، وَيُعاتِبُ الرَّسولَ ﷺ في قَبولِ الفِداءِ ، وَيُخْبِرُهُ أَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – غَفَرَ لَهُ وَلِمَنْ أَشارَ بِذَلِكَ، وَعَفا عَنْهُمْ، فَاللهُ عَفُوٌّ غَفورٌ .

بَنو قَيْنُقاع

رَجَعَ المُسْلِمونَ إلى المَدينَةِ بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ ، وَقَدْ أَجْرى اللهُ النَّصْرَ عَلى أَيْديهِمْ ، وَرَجَعَ المُشْرِكونَ إلى مَكَّةَ وَقَدْ أَخْزاهُمُ اللهُ بِالهَزيمَةِ .

وَكانَتْ بَعْضُ القَبائِلِ اليَهودِيَّةِ تُساكِنُ العَرَبَ في المَدينَةِ، وَمِنْها قَبيلَةُ « بَني قَيْنُقاع »

ضاقَتْ قَبيلَةُ « بَني قَيْنُقاع » بِنَصْرِ المُسْلِمينَ وَهَزيمَةِ المُشْرِكينَ ، وَاغْتاظَتْ غَيْظًا شَديداً ، وَحَقَدَتْ عَلى المُسْلِمينَ ؛ لأَنَّ اللهَ نَصَرَهُمْ عَلى أَعْدائِهِمْ . وَأَظْهَرَ « بَنو قَيْنُقاع » حِقْدَهُمْ وَغَيْظَهُمْ بِقَوْلِهِمْ : « يا مُحَمَّدُ ، لا يَغُرَّنَّكَ هَذا النَّصْرُ ، الَّذي تَحَقَّقَ لَكَ عَلى قُرَيْشٍ ؛ لأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْرِفونَ القِتالَ ، وَلَيْسَتْ لَهُمْ دِرايَةٌ بِفُنونِ الحَرْبِ ، وَلَوْ أَنَّكَ حارَبْتَنا نَحْنُ – لَعَرَفْتَ كَيْفَ يَكونُ القِتالُ ، وَلِمَنْ يَكونُ النَّصْرُ ؟ »

وَكانَ لِقبيلَةِ « بَني قَيْنُقاع » سوقٌ كَبيرَةٌ مَشْهورَةٌ ، يَقْصِدُها النّاسُ لِلْبَيْعِ وَالشِّراءِ ، فَذَهَبَتِ امْرَأَةٌ مُسلِمَةٌ إلى هَذِهِ السّوقِ ؛ لِكَيْ تَبيعَ بَعْضَ الأشْياءِ . وَبَعْدَ أنْ فَرَغَتْ مِنْ بَيْعِ ما مَعَها ، ذَهَبَتْ إلى تاجِرِ ذَهَبٍ يَهودِيٍّ في السّوقِ؛ لِتَشْتَرِيَ قِطْعَةَ حَلْيٍ ، فَقامَ هَذا التّاجِرُ وَعَقَدَ ثَوْبَ المَرْأةِ المُسْلِمَةِ مِنْ خَلْفِها . فَلَمّا وَقَفَتِ انْكَشَفَ بَعْضُ جِسْمِها ، فَسَخِروا مِنْها ، وَضَحِكوا عَلَيْها .

صَرَخَتِ المَرْأةُ المُسْلِمَةُ ، وَاسْتَغاثَتْ بالمُسْلِمينَ . وَكانَ هُناكَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ ، رَأى ما حَدَثَ لَها ، وَسَمِعَ صَرْخَتَها ؛ فَاسْتَجابَ لِندائِها ، وَقَتَلَ التّاجِرَ اليَهودِيَّ .

تَجَمَّعَ اليَهودُ عَلى الرَّجُلِ المُسْلِمِ ، وَأحاطوا بِهِ ، وَقَتَلوهُ.

وَصَلَ الخَبَرُ إلى الرَّسولِ ﷺ ؛ فَأمَرَ المُسْلِمينَ بِأنْ يَتَجَهَّزوا لِقِتالِ « بَني قَيْنُقاع » . وَلَمّا عَلِمَ « بَنو قَيْنُقاع » بِأنَّ المُسْلِمينَ في طَريقِهِمْ إلَيْهِمْ – خافوا خَوْفًا شَديدًا ، وَتَحَصَّنوا في حُصونِهِمْ ، يَحْتَمونَ بِها مِنْ جَيْشِ المُسْلِمينَ،

فَحاصَرَهُمُ المُسْلِمونَ في هَذِهِ الحُصونِ ، وَدامَ الحِصارُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، وَبَنو قَيْنُقاع لا يَسْتَسْلِمونَ ؛ لَعَلَّ المُسْلِمينَ يَتْعَبونَ مِنَ الحِصارِ ، وَيَرْجِعونَ إلى دِيارِهِمْ ، وَلَكِنَّ حِصارَ المُسْلِمينَ لَهُمُ اسْتَمَرَّ وَاشْتَدَّ ، فَلَمْ يَجِدْ بَنو قَيْنُقاع مَفَرًّا مِنَ الخُضوعِ لِحُكْمِ المُسْلِمينَ ، فَاكْتَفى الرَّسولُ ﷺ بِطَرْدِهِمْ مِنَ المَدينَةِ ، وَإجْلائِهِمْ عَنْها ، فَذَهَبوا إلى بَلْدَةِ « أذْرِعات » مِنْ بِلادِ الشّامِ ، وَهَلَكَ مُعْظَمُهُمْ هُناكَ .

غَزْوَةُ أُحُد

رَجَعَ المُشْرِكونَ مِنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ مَهْزومينَ مَحْزونينَ ؛ فَقَدْ قَتَلَ المُسْلِمونَ مِنْ أَشْرافِهِمْ سَبْعينَ ، وَأَسَروا مِنْهُمْ سَبْعينَ.

كانَ المُشْرِكونَ في غَيْظٍ شَديدٍ مِنَ المُسْلِمينَ ، فَقامَ جَماعَةٌ مِنْهُمْ وَقالوا : « إِنَّ مُحَمَّداً وَأَصْحابَهُ قَدْ قَتَلوا مِنّا الكَثيرَ ، وَإِنَّ لَنا عِنْدَهُمْ ثَأْراً لا بُدَّ أَنْ نُدْرِكَهُ ، وَلِذَلِكَ عَلَيْنا أَنْ نَتَجَهَّزَ لِحَرْبِهِمْ ، وَنَسْتَعِدَّ لِقِتالِهِمْ ، وَذَلِكَ بِأَنْ نُنْفِقَ جَميعَ الأَمْوالِ الَّتي كانَتْ في القافِلَةِ عَلى تَجْهيزِ المُحارِبينَ ، وَإِعْدادِ المُقاتِلينَ .

وافَقَتْ قُرَيْشٌ كُلُّها عَلى ذَلِكَ ، وَبَدَأَتْ تُجَهِّزُ السِّلاحَ وَالرِّجالَ لِحَرْبِ المُسْلِمينَ ، وَالانْتِقامِ مِنْهُمْ ، وَاسْتِرْدادِ كَرامَتِها الَّتي ضاعَتْ في غَزْوَةِ بَدْرٍ .

أَتَمَّ المُشْرِكونَ في مَكَّةَ اسْتِعْدادَهُمْ ، فَخَرَجوا يَقْصِدونَ

المَدينَةَ المُنَوَّرَةَ ، وَخَرَجَتْ مَعَهُمُ النِّساءُ ، وَفيهِمْ « هِنْدُ » زَوْجَةُ « أبو سُفْيانَ » .

وَصَلَ المُشْرِكونَ قَريبًا مِنَ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، وَعَسْكَروا خارِجَها قَريباً مِنْ جَبَلِ « أُحُد . »

عَلِمَ الرَّسولُ ﷺ بِخُروجِ قُرَيْشٍ لِحَرْبِهِ وَحَرْبِ المُسْلِمينَ ؛ فَجَمَعَ أَصْحابَهُ لِيَتَشاوَرَ مَعَهُمْ .

قالَ بَعْضُهُمْ : « نَتَحَصَّنُ داخِلَ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْنا المُشْرِكونَ قاتَلْناهُمْ في الطُّرُقاتِ وَالدُّروبِ ، وَقَذَفَهُمُ الصِّبْيانُ وَالنِّساءُ بِالحِجارَةِ . إِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْنا المَدينَةَ عَدُوٌّ إِلا غَلَبْناهُ . »

وَكَذَلِكَ كانَ رَأْيُ الرَّسولِ ﷺ .

لَكِنَّ فَريقًا آخَرَ مِنَ المُسْلِمينَ ، فيهِمْ بَعْضُ الشَّبابِ ، وَفيهِمُ الَّذينَ لَمْ يَحْضُروا غَزْوَةَ بَدْرٍ – رَأَوا الخُروجَ لِمُلاقاةِ المُشْرِكينَ خارِجَ المَدينَةِ ، وَلا يَتْرُكونَهُمْ يَدْخُلونَها عَلَيْهِمْ .

وَقَعَتْ هَذِهِ المُشاوَرَةُ يَوْمَ الجُمُعَةِ ، بَعْدَ الانْتِهاءِ مِنَ الصَّلاةِ ، فَدَخَلَ الرَّسولُ ﷺ بَيْتَهُ وَلَبِسَ دِرْعَهُ .

شَعَرَ الّذينَ قالوا بِالخُروجِ لِمُلاقاةِ المُشْرِكينَ أَنَّهُم أكْرَهوا الرَّسولَ ﷺ على الخُروجِ – فَقَدْ كانَ رَأْيُه غَيرَ ذَلِكَ . فَلَمّا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قالوا : « يا رَسولَ اللهِ ، لَقَدْ عَدَلْنا عَنْ رَأْيِنا ، وَرَجَعْنا عَنْ قَوْلِنا – فاصْنَعْ ما تَشاءُ ، وَنَحْنُ لَكَ طائِعونَ . »

قالَ لَهُمُ الرَّسولُ ﷺ : « ما كانَ لِنَبِيٍّ لَبِسَ لأمَتَهُ (عُدَّةَ الحَرْبِ) أنْ يَدَعَها حَتّى يُقاتِلَ . »

خَرَجَ جَيْشُ المُسْلِمينَ مِنَ المَدينَةِ المُنَوَّرَة ، لِمُلاقاةِ المُشْرِكينَ ، وَكانَ عَدَدُهُ يُناهِزُ الأَلْفَ ، وَلَكِنْ في الطَّريقِ بَيْنَ المَدينَةِ وَأُحُدٍ رَجَعَ ثُلُثُ الجَيْشِ بِقِيادَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ، وبَقِيَ مَعَ الرَّسولِ ﷺ سَبْعُمائَةِ رَجُلٍ ، في حينِ كانَ جَيْشُ المُشْرِكينَ قَريبًا مِنَ الثَّلاثَةِ آلافِ مُقاتِلٍ ، مِنْ بَيْنِهِم مِائَتا فارِسٍ ، يَقودُهُمْ خالِدُ بْنُ الوَليدِ، وَكانَ لَمْ يُسْلِمْ بَعْدُ.

وَصَلَ المُسْلِمونَ أَرْضَ المَعْرَكَةِ ، وَكانَ ذَلِكَ يَوْمُ السَّبْتِ الخامِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوّالٍ ، لِلسَّنَةِ الثّالِثَةِ مِنَ الهِجْرَةِ ، فَأَخَذَ الرَّسولُ ﷺ يُنَظِّمُ صُفوفَ الجَيْشِ تَنْظيمًا دَقيقًا ،

وَيُحَدِّدُ لِكُلِّ فَريقٍ الدَّوْرَ الَّذي يَقومُ بِهِ ، فَاخْتارَ خَمْسينَ رَجُلًا مِنَ الرُّماةِ البارِعينَ ، وَأَمَرَهُمْ أنْ يَصْعَدوا فَوْقَ الجَبَلِ ، وَأَنْ يَحْموا ظَهْرَ المُسْلِمينَ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَرْموا المُشْرِكينَ بِالسِّهامِ ، فَيَمْنَعوهُمْ مِنَ الالْتِفافِ حَوْلَ المُسْلِمينَ . وَأَمَرَهُمْ ألا يُغادِروا أَماكِنَهُمْ مَهْما كانَتْ نَتيجَةُ المَعْرَكَةِ : النَّصْرُ أَوِ الهَزيمَةَ – حَتّى يَأْذَنَ لَهُمْ بِالمُغادَرَةِ .

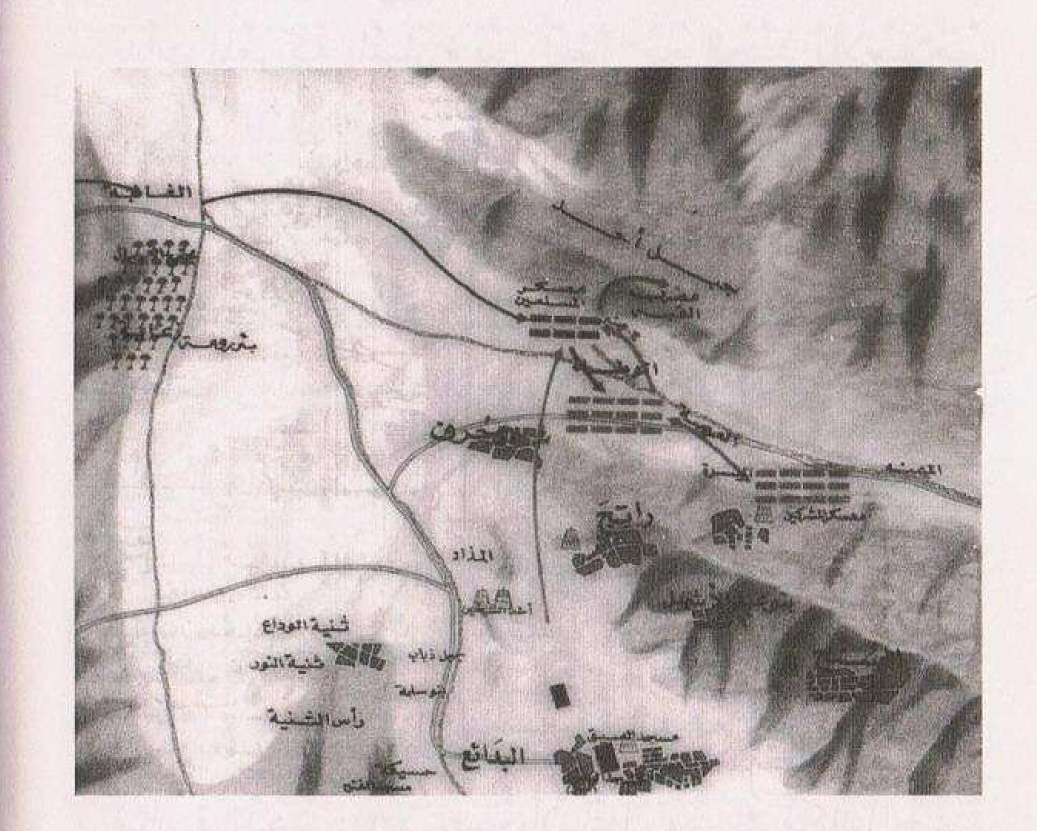
بَدَأَتِ المَعْرَكَةُ بِالمُبارَزَةِ بَيْنَ أَبْطالٍ مِنَ الجَيْشِ الإِسْلامِيِّ وَآخَرينَ مِنَ المُشْرِكينَ ، وَقَتَلَ الأَبْطالُ المُسْلِمونَ أَعْداءَهُمْ . ثُمَّ الْتَحَمَ الجَيْشانِ ، وَدارَ القِتالُ ، وَأَظْهَرَ المُسْلِمونَ شَجاعَةً فائِقَةً ، وَانْهَزَمَ المُشْرِكونَ أَمامَهُمْ ، وَفَرَّتِ النِّساءُ المُشْرِكاتُ صارِخاتٍ ، وَالمُسْلِمونَ يُلاحِقونَ جَيْشَ المُشْرِكينَ .

رَأى الرُّماةُ المُسْلِمونَ أَنَّ المَعْرَكَةَ في صالِحِ المُسْلِمينَ ، وَأَنَّ النَّصْرَ حالَفَهُمْ ، وَأَنَّ الهَزيمَةَ نَزَلَتْ بِالمُشْرِكينَ ، وَرَأَوْا أَنَّ بَعْضَ المُسْلِمينَ يَجْمَعُ الغَنائِمَ ؛ فَقالوا : « لَقَدِ انْتَهَتِ المَعْرَكَةُ ، وَعَلَيْنا أَنْ تَنْزِلَ لِنَجْمَعَ الغَنائِمَ مَعَ إِخْوانِنا . »

قالَ قائِدُهُمْ : « لا يَصِحُّ أَنْ نَنْزِلَ وَنَتْرُكَ مَكانَنا حَتّى

يَأْذَنَ لنا الرَّسولُ ﷺ ؛ فَهَذا أَمْرُهُ لَنا .»

لَمْ يَسْمعِ الكَثيرُ مِنَ الرُّماةِ لِقَوْلِ قائِدِهِمْ ، وَتَركوا أماكِنَهُمْ ، وَنَزَلوا لِيَجْمَعوا الغَنائِمَ ، وبَقِيَ القائِدُ وَمَعَهُ مَجْموعَةٌ قَليلَةٌ مِنَ الرُّماةِ فَوقَ الجَبَلِ . وَ أَبْصَرَ خالِدُ بْنُ الوَليدِ - وَكانَ قائِدَ الفُرْسانِ في جَيْشِ المُشْرِكينَ - ما



صَنَعَهُ الرُّماةُ المُسْلِمونَ ، وَرَأى كَيْفَ غادَروا أماكِنَهُمْ ، وَعَرَفَ أَنَّ الرِّجالَ الباقينَ مِنْهُمْ يُمْكِنُ التَّغَلُّبُ عَلَيْهِمْ .

حينَئِذٍ اسْتَدارَ بِالفُرسانِ المُشْرِكينَ ، وَقَتَلَ الرُّماةَ الباقينَ ، وَالْتَفَّ عَلى المُسْلِمينَ مِنْ خَلْفِهِمْ . وَلَمّا شَعَرَ المُشْرِكونَ الفارّونَ بِذَلِكَ عادوا إلى المَعْرَكَةِ ؛ فَوَقَعَ المُسْلِمونَ بَيْنَ المُشْرِكينَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَمِنْ أَمامِهِمْ ؛ فاضْطَرَبَ أَمْرُهُمْ ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ عَدَدٌ كَثيرٌ ، فيهِمْ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، عَمُّ الرَّسولِ ﷺ ، وَفَتَحَتْ « هِنْدُ » زَوْجَةُ أبو سُفْيانَ بَطْنَهُ وَأَخْرَجَتْ كَبِدَهُ ، وَحاوَلَتْ أَنْ تَمْضُغَها فَلَمْ تَسْتَطِعْ، فَقَدْ كانَ حَمْزَةُ قاتِلَ أَبيها في غَزْوَةِ بَدْرٍ .

وَزادَ مِنِ اضْطِرابِ المُسْلِمينَ ما أَشاعَهُ بَعْضُ المُشْرِكينَ مِنْ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ . وَحاوَلَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ اسْمُهُ « أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ » أَنْ يَصِلَ إلى مَكانِ الرَّسولِ ﷺ لِيَقْتُلَهُ .

لَقَدْ كانَ هَذا الرَّجُلُ يَلْقى الرَّسولَ في مَكَّةَ - قَبْلَ الهِجْرَةِ - وَيَقولُ لَهُ : « يا مُحَمَّدُ ، إنَّ عِنْدي فَرَسًا أَعْلِفُها كُلَّ يَوْمٍ ، وَأَعْتَني بِها ؛ لأَقْتُلَكَ عَلَيْها .»

وَكانَ الرَّسولُ ﷺ يُجيبُهُ : « سَأَقْتُلُكَ إنْ شاءَ اللهُ . »

وَفي يَوْمِ « أُحُدٍ » حاوَلَ هَذا الرَّجُلُ أَنْ يَصِلَ إلى مَكانِ النَّبيِّ لِيَقْتُلَهُ ، وَهُوَ يَصيحُ « أَينَ مُحَمَّدٌ ؟ لا نَجَوْتُ إنْ نَجا ! » وَكانَ نَفَرٌ مِنَ المُسْلِمينَ يُحيطونَ بِالرَّسولِ ﷺ يُدافِعونَ عَنْهُ ، فَأَرادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَقْتُلَهُ ، فَقالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : « دَعْهُ لي . »

ثُمَّ تَناوَلَ حَرْبَةً مِنْ أَحَدِ المُسْلِمينَ ، وَضَرَبَ بِها الرَّجُلَ ، فَجَرَحَتْهُ جُرْحًا بَسيطًا في عُنُقِهِ . فَعادَ الرَّجُلُ إلى المُشْرِكينَ يَرْتَعِدُ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ ، وَيَقولُ : « لَقَدْ قَتَلَني مُحَمَّدٌ ! »

فَقالَ لَهُ بَعْضُ المُشْرِكينَ : « لا تَجْزَعْ يا رَجُلُ . فَإنَّما هُوَ جُرْحٌ بَسيطٌ غَيْرُ عَميقٍ ، وَسَتَبْرَأُ مِنْهُ قَريبًا . »

قالَ أُبَيٌّ : « لَقَدْ قالَ لي مُحَمَّدٌ إنَّهُ سَيَقْتُلُني . وَاللهِ ، لَوْ بَصَقَ عَلَيَّ لَقَتَلَني ! »

وَماتَ أُبَيٌّ وَهُوَ في طَريقِ عَوْدَتِهِ إلى مَكَّةَ ، مُتَأَثِّرًا بِجُرْحِهِ .

وَقَفَ هَذا النَّفَرُ مِنَ المُسْلِمينَ حَوْلَ الرَّسولِ ﷺ يُدافِعونَ

عَنْهُ ، وَانْضَمَّتْ إلَيْهِمْ جَماعَةٌ أُخْرى مِنَ المُسْلِمينَ ، وَكانَ أَبو طَلْحَةَ الأَنْصارِيُّ يَصُدُّ بِتُرْسِهِ عَنْ رَسولِ اللهِ ، وَكانَ الرَّسولُ ﷺ يَتَطَلَّعُ لِيَرى ما يَصْنَعُ المُشْرِكونَ ، فَيَقولُ لَهُ أَبو طَلْحَةَ : « لا تُشْرِفْ عَلَيْهِمْ يا رَسولَ اللهِ ، كَيْلا يُصيبوكَ . نَحْري دونَ نَحْرِكَ . » وَرَفَعَ أَبو طَلْحَةَ يَدَهُ يَصُدُّ بِها سَهْمًا عَنْ رَسولِ اللهِ ، فَأَصابَ السَّهْمُ يَدَهُ فَشُلَّتْ .

وَكانَ مِنْ بَيْنِ هَذا النَّفَرِ المُدافِعِ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ نَسيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ ، وَهِيَ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصارِ ، خَرَجَتْ يَوْمَ أُحُدٍ لِتَسْقِيَ المُقاتِلينَ ، وَتُضَمِّدَ جِراحَهُمْ ، وَلَكِنَّها حينَ أَبْصَرَتِ المُشْرِكينَ يُحاوِلونَ الاقْتِرابَ مِنْ رَسولِ اللهِ أَلْقَتْ ما مَعَها مِنْ أَدَواتِ السَّقْيِ وَالتَّضْميدِ ، وَأَمْسَكَتِ السَّيْفَ تَضْرِبُ في المُشْرِكينَ ضَرْبًا عَنيفًا ، وَتَذودُ عَنْ رَسولِ اللهِ ، وَأَصابَها جُرْحٌ غائِرٌ في كَتِفِها ، وَلَكِنَّها لَمْ تَتْرُكْ مَكانَها . وَكانَ ابْنُها إلى جِوارِها ، فَأَصابَهُ جُرْحٌ أَسْقَطَهُ عَلى الأَرْضِ ، فَصاحَتْ بِهِ أَنْ يَنْهَضَ وَيُقاتِلَ . فَنَظَرَ إلَيْها الرَّسولُ ﷺ وَقالَ لَها : « وَمَنْ يُطيقُ ما تُطيقينَ ، يا أُمَّ عِمارَةَ ؟ »

وَانْتَهَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ بِهَزيمَةِ المُسْلِمينَ ؛ وَجُرِحَ الرَّسولُ ﷺ حَتّى سالَ الدَّمُ مِنْ وَجْهِهِ ، وَكُسِرَتْ رَباعِيَّتُه . وَذَلِكَ لأنَّ بَعْضَ المُسْلِمينَ خالَفوا أمْرَ الرَّسولِ ﷺ ، وَلَمْ يَلْتَزِموا بِتَعْليماتِهِ ، وَخَدَعَتْهُمُ الغَنائِمُ فَتَرَكوا أماكِنَهُمْ .

رَجَعَ المُسْلِمونَ إلى المَدينَةِ ، وَباتوا يُعالِجونَ جُروحَهُمْ ، وَيَتَألَّمونَ لِما حَدَثَ لَهُمْ . وَلَمّا طَلَعَ صَباحُ يَوْمِ الأحَدِ السّادِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوّالٍ ، أمَرَ الرَّسولُ ﷺ جَميعَ الَّذينَ كانوا مَعَهُ بِالأمْسِ -أمَرَهُمْ أنْ يَخْرُجوا لِطَلَبِ العَدُوِّ وَمُتابَعَتِهِ ، حَتّى يُرْهِبَهُمْ وَيُخافَهُمْ ، وَلا يَظُنَّ أنَّ الهَزيمَةَ أضْعَفَتْهُمْ ، وَحَتّى لا يُفَكِّرَ في العَوْدَةِ لِمُهاجَمَةِ المَدينَةِ .

خَرَجوا جَميعًا لَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُم أحَدٌ ، وَ وَصَلوا إلى مَكانٍ خارِجَ المَدينَةِ اسْمُهُ « حَمْراءُ الأسَدِ » ، وَأقاموا بِها ثَلاثَةَ أيّامٍ . وَ عَلِمَ المُشْرِكونَ أنَّ المُسْلِمينَ خَرَجوا يَتَعَقَّبونَهُمْ – فانْصَرَفوا إلى مَكَّةَ مُسْرِعينَ .

بنو النّضير

رَجَعَ الرَّسولُ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ أُحُد ، وَقَد لَحِقَتِ الهَزيمَةُ بِالمُسْلِمينَ ؛ لأنَّ بَعْضَهُمْ خالَفَ أمْرَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَتَرَكَ مَوْقِعَهُ في الحَرْبِ ، وَلَمْ يَلْتَزِمْ بِتَنْفيذِ تَعْليماتِ القِيادَةِ . رَجَعَ الرَّسولُ الكَريمُ وَالمُسْلِمونَ إلى المَدينَةِ مَجْروحينَ مُتَألِّمينَ ؛ فَفَرِحَ بِذَلِكَ اليَهودُ فَرَحاً شَديداً .

وَحَدَثَ أنَّ رَجُلاً مِنَ المُسْلِمينَ قَتَلَ رَجُلَيْنِ مِنْ بَني عامِرٍ ، وَكانَ بَيْنَ الرَّسولِ وَهَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ عَهْدٌ وَميثاقٌ ، لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ المُسْلِمُ يَعْلَمُ بِهِ ، فَقَتَلَهُما حينَ لَقِيَهُما ثَأراً لِلْمُسْلِمينَ الَّذينَ كانَ بَنو عامِرٍ قَدْ قَتَلوهُمْ .

وَلَمّا أخْبَرَ الرَّجُلُ المُسْلِمُ الرَّسولَ ﷺ بِما وَقَعَ مِنْهُ ؛ قالَ الرَّسولُ الوَفيُّ : « إنَّ عَلَيْنا أنْ نَدْفَعَ دِيَةَ (تَعْويض) هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ؛ لأنَّ بَيْنَنا وَبَيْنَهُما عَهْداً وَميثاقاً . »

وَكانَ بَيْنَ الرَّسولِ وَبَني النَّضيرِ مُعاهَدَةٌ تَقْضي بِالتَّعاوُنِ في دَفْعِ الدِّياتِ ، فَذَهَبَ الرَّسولُ وَمَعَهُ أبو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ وَغيرُهُمْ مِنْ كِبارِ الصَّحابَةِ إلى حِصْنِ بَني النَّضيرِ ، وَكانَ خارِجَ المَدينَةِ قَريبًا مِنْها - ذَهَبَ إلَيْهِمْ يَطْلُبُ مِنْهُمْ مُعاوَنَتَهُ في دَفْعِ دِيَةِ الرَّجُلَيْنِ ؛ وَفاءً بِالمُعاهَدَةِ الَّتي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ .

أجابَ بَنو النَّضيرِ : « نَعَمْ ، سَنُعاوِنُكَ ، يا أبا القاسِمِ فيما طَلَبْتَ . »

ثُمَّ خَلا بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ، وَقالوا : « إنَّها فُرْصَةٌ سَنَحَتْ ، وَما نَظُنُّها تَأتي مَرَّةً أخْرى ، أنْ يَصْعَدَ واحِدٌ مِنّا إلى سَطْحِ هَذِهِ الدّارِ الَّتي يَجْلِسُ مُحَمَّدٌ وَأصْحابُهُ في ظِلِّ جِدارِها ، وَيُلْقِيَ عَلَيْهِ حَجَرًا فَيَقْتُلَهُ - وَبِذَلِكَ نَسْتَريحُ مِنْهُ وَمِنَ الدّينِ الَّذي جاءَ بِهِ . »

وَلَكِنَّ اللهَ - عَزَّ وَ جَلَّ - أخْبَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِما يُدَبِّرُهُ بَنو النَّضيرِ مِنْ كَيْدٍ ، وَما يَمْكُرونَهُ مِنْ مَكْرٍ ؛ فَقامَ الرَّسولُ مِنْ بَيْنِ أصْحابِهِ ، وَمَشى قاصِدًا المَدينَةَ ، وَلَبِثَ أصْحابُهُ في

أماكِنِهِمْ يَنْتَظِرونَهُ ، وَلا يَعْلَمونَ أيْنَ ذَهَبَ . وَطالَ بِهِمُ الانْتِظارُ ، فَغادَروا حِصْنَ بَني النَّضيرِ ، وَانْطَلَقوا صَوْبَ المَدينَةِ ، يَبْحَثونَ عَنْ رَسولِهِمُ الحَبيبِ ، وَإذا بِهِمْ يَلْتَقونَ رَجُلًا قادِمًا مِنَ المَدينَةِ فَسَألوهُ : « هَلْ رَأيْتَ رَسولَ اللهِ في طَريقِكَ ؟ »

أجابَ الرَّجُلُ : « نَعَمْ ، رَأيْتُهُ ﷺ ذاهِبًا إلى المَدينَةِ . »

تَعَجَّبَ الصَّحابَةُ مِنَ الأمْرِ ، وَلَكِنَّهُمْ أدْرَكوا أنَّ هُناكَ سِرًّا ، سَيَكْشِفُ لَهُمُ الرَّسولُ عَنْهُ ، فَجَدّوا في سَيْرِهِمْ إلى المَدينَةِ - وَما إنْ رَآهُمْ رَسولُ اللهِ ﷺ حَتّى أخْبَرَهُمْ بِما كانَ يُعِدُّ لَهُ بَنو النَّضيرِ مِنَ الكَيْدِ ، وَما كانوا يُدَبِّرونَهُ مِنَ الغَدْرِ !

ثُمَّ أمَرَ الرَّسولُ ﷺ بِالتَّجَهُّزِ لِحَرْبِ بَني النَّضيرِ ؛ فَقَدْ أطْمَعَتْهُمُ الهَزيمَةُ في يَوْمِ أُحُدٍ ، وَظَنّوا أنَّ المُسْلِمينَ قَدْ ضَعُفَتْ عَزائِمُهُمْ ، وَخارَتْ قُواهُمْ ، وَأصْبَحوا غَيْرَ قادِرينَ على الدِّفاعِ عَنْ أنْفُسِهِمْ ، وَأنَّهُ قَدْ حانَ الوَقْتُ لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُمْ ، وَالقَضاءِ عَلَيْهِمْ .

تَجهَّزَ المُسْلِمونَ ، وَاتَّخذوا طَريقَهُمْ إلى حِصْنِ بَني النَّضيرِ سيرًا على الأقْدامِ ؛ فَقَدْ كانَ حِصْنُهُمْ لا يَبْتَعِدُ عَنِ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ غَيْرَ ميلَيْنِ .

حاصَرَ الرَّسولُ والمُسْلِمونَ حِصْنَ بَني النَّضيرِ سِتَّ لَيالٍ، وَظَنَّ بنو النَّضيرِ أنَّ حُصونَهُمْ مانِعَتُهُمْ ، وَأنَّ المُسْلِمينَ لَنْ يَتَمكَّنوا مِنْهُمْ ، وأنَّ ما عِنْدَهُمْ مِنَ المُؤونَةِ يَكْفيهِمُ المُدَّةَ الطَّويلَةَ ، الَّتي تَجعَلُ المُسْلِمينَ يَضيقونَ بِالحِصارِ ذَرْعًا ، وَتَزهَقُ نُفوسُهُمْ مِنْ مَتاعِبِهِ ، فَيَنْصَرِفونَ بِالخَيْبَةِ وَالخِذْلانِ .

وَلكِنَّ الرَّسولَ ﷺ أمَرَ بِقَطْعِ نَخيلِهِمْ وَإحْراقِهِ ؛ لِيُشيعَ في نُفوسِهِمُ الخَوْفَ ، وَلِيُوَسِّعَ المَكانَ لإحْكامِ الحِصارِ حَوْلَهُمْ .

شَقَّ ذلِكَ على بَني النَّضيرِ ، وَضاقَتْ بِالحِصارِ نُفوسُهُمْ ، وَقَذَفَ اللهُ الرُّعْبَ في قُلوبِهِمْ ؛ فَأرْسَلوا إلى الرَّسولِ ﷺ يَسْألونَهُ أنْ يُجْلِيَهُمْ عَنِ المَدينَةِ كَما أجْلى بَني قَيْنُقاعَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَأنْ يأخُذوا مَعَهُمْ ما تَسْتَطيعُ الإبِلُ أنْ تَحْمِلَهُ مِنَ الأمْوالِ وَالمَتاعِ إلا السِّلاحَ ، فَإنَّهُمْ يَتْرُكونَهُ . وافَقَ الرَّسولُ

ﷺ على ذلِكَ ، وَسَمَحَ لَهُمْ بِالخُروجِ ، فَكانَ الواحِدُ مِنهُمْ يَقْتَلِعُ بابَ دارِهِ ، وَيَحْمِلُهُ على جَمَلِهِ !

جَلا بَنو النَّضيرِ عَنِ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، وَمَعَهُمْ مِنْ أمْوالِهِمْ ما استَطاعَتْ إبِلُهُمْ أنْ تَحْمِلَهُ ، فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إلى خَيْبَرَ وَكانَ فيها يَهودٌ مِثْلُهُم ، وَذَهَبَ البَعْضُ الآخَرُ إلى بِلادِ الشّامِ .

وَقَدْ قَسَّمَ الرَّسولُ ﷺ ما خَلَّفوهُ مِنْ أمْوالٍ بَيْنَ المُهاجِرينَ، وَلَمْ يُعْطِ الأنْصارَ مِنْهُ شَيْئًا عَدا ثَلاثَةً مِنْهُمْ كانوا فُقَراءَ ، هُمْ : أبو دُجانَةَ ، وسُهَيْلُ بْنُ حُنَيْفٍ ، وَالحارِثُ بْنُ الصِّمَّةِ .

وَإنَّما آثَرَ الرَّسولُ ﷺ المُهاجِرينَ دونَ الأنْصارِ بِهذِهِ الأمْوالِ ؛ لأنَّ المُهاجِرينَ كانوا قَدْ تَرَكوا دِيارَهُمْ وَأمْوالَهُمْ في مَكَّةَ ، وَكانوا يَعيشونَ في دِيارِ الأنْصارِ ، وَكانوا فُقَراءَ حَتّى إنَّ بَعْضَهُمْ لَيَتَّخِذُ الحَصيرَةَ في الشِّتاءِ ، ما لَهُ غَيْرُها ، يَنامُ على جُزْءٍ مِنْها ، وَيَصْطَنِعُ مِنَ الجُزْءِ الآخَرِ غِطاءً !

وَما كانَ الرَّسولُ ﷺ يَفعَلُ ذَلِكَ عَنْ أمْرِهِ ، وَإنَّما كانَ بِوَحْيٍ مِنْ رَبِّهِ : ﴿ لِلْفُقَراءِ المُهاجِرينَ الَّذين أُخْرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأمْوالِهِمْ يَبْتَغونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوانًا وَيَنْصُرونَ اللهَ وَرَسولَهُ أولَئِكَ هُمُ الصّادِقونَ ﴾.

وَقَدْ رَحَّبَ الأنْصارُ بِما قَسَمَ اللهُ وَرَسولُهُ ، فَدَعا الرَّسولُ لَهُمْ وَلأبْنائِهِمْ بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوانِ، وَأنْزَلَ اللهُ – عَزَّ وَ جَلَّ – فيهِمْ قُرآنًا يُتْلى إلى ما شاءَ اللهُ ﴿ وَالَّذينَ تَبَوَّءوا الدّارَ وَالإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبّونَ مَنْ هاجَرَ إلَيْهِمْ وَلا يَجِدونَ في صُدورِهِمْ حاجَةً مِمّا أوتوا وَيُؤْثِرونَ عَلى أنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأولَئِكَ هُمُ المُفْلِحونَ ﴾.

غَزْوَةُ الخَنْدَق (الأحْزاب)

أجْلى الرَّسولُ ﷺ يَهودَ بَني النَّضيرِ عَنِ المَدينَةِ ، بِسَبَبِ نَقْضِهِمُ المُعاهَدَةَ الَّتي كانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، فَاسْتَقَرَّ بَعْضُ قادَتِهِمْ في خَيْبَرَ ، وَكانَتْ صُدورُهُمْ تَغْلي حِقْدًا عَلى الرَّسولِ ﷺ وَالمُسْلِمينَ ؛ لأنَّهُمْ أخْرَجوهُمْ مِنْ دِيارِهِمْ وَحُصونِهِمْ ، وَلَمْ يَتَذَكَّروا أنَّهُمْ كانوا السَّبَبَ فيما وَقَعَ لَهُمْ، وَأنَّهُمْ خَرَّبوا بُيوتَهُمْ بِأيْديهِمْ .

دَفَعَهُمُ الحِقْدُ وَالعَداوَةُ إلى الذَّهابِ إلى قُرَيْشٍ في مَكَّةَ ، وَقالوا لَهُمْ : « إنَّ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ عَداوَةً شَديدَةً ، وَتَعْلَمونَ ما بَيْنَنا وَبَيْنَهُ مِنَ العَداوَةِ – فَتَعالَوا نَتَحالَفْ مَعًا عَلى التَّخَلُّصِ مِنْهُ وَمِنَ المُسْلِمينَ . »

قالَ قادَةُ قُرَيْشٍ : « وَكَيْفَ السَّبيلُ إلى ذَلِكَ ؟ »

قالَ قادَةُ بَني النَّضيرِ : « تَجْمَعونَ أنْتُمْ رِجالَكُمْ ، وَتُعِدّونَ عُدَّتَكُمْ ، وَتُحاصِرونَ المَدينَةَ ، وَنَهْجُمُ نَحْنُ عَلَيْهِ

مِنْ داخِلِ المَدينَةِ ، وَبِذَلِكَ يَقَعُ مُحَمَّدٌ وَالمُسْلِمونَ بَيْنَنا ؛ فَنَقْضي عَلَيْهِمْ قَضاءً مُبْرَماً .»

قالَ قادَةُ قُرَيْشٍ : « كَيْفَ تَهْجُمونَ عَلَيْهِ مِنَ الدّاخِلِ ، وَأَنْتُمْ لا تُقيمونَ في مَدينَتِهِ ، فَقَدْ أَخْرَجَكُمْ مِنْها ؟»

قالَ قادَةُ بَني النَّضيرِ : « إِنَّ بَني قُرَيْظَةَ أَبْناءُ عَمِّنا ، وَهُمْ يُقيمونَ في المَدينَةِ ، وَتَعْلَمونَ شِدَّتَهُمْ وَبَأْسَهُمْ في القِتالِ ، وَتَعْلَمونَ مَنَعَةَ حُصونِهِمْ وَقُوَّتَها ، وَتَعْرِفونَ ما عِنْدَهُمْ مِنْ سِلاحٍ وَعَتادٍ ، وَقَدْ اتَّفَقْنا مَعَهُمْ عَلى مُهاجَمَةِ مُحَمَّدٍ وَالمُسْلِمينَ مِنَ وَراءِ ظُهورِهِمْ .»

وافَقَتْ قُرَيْشٌ عَلى ما دَعاها إِلَيْهِ قادَةُ بَني النَّضيرِ ، وَرَحَّبَتْ بِهِ ؛ إِذْ رَأَتْ فيهِ خَلاصاً مِمّا يُعَكِّرُ حَياتَها ، وَيُكَدِّرُ صَفْوَها ، وَيُهَدِّدُ أَمْنَها وَسَلامَتَها

اِطْمَأَنَّ قادَةُ بَني النَّضيرِ إِلى تَجاوُبِ قُرَيْشٍ مَعَهُمْ ؛ فَذَهَبوا إِلى قَبائِلَ عَرَبِيَّةٍ أُخرى ، كانَتْ تُحالِفُ « قُرَيْشاً » ، وَتَكْرَهُ الإِسْلامَ وَالمُسْلِمينَ، فَحَدَّثوها بِمِثْلِ ما حَدَّثوا بِهِ قادَةَ قُرَيْشٍ ؛ فَتَجاوَبَتْ مَعَهُمْ هذِهِ القَبائِلُ واتَّفَقوا مَعَهُمْ عَلى

مُهاجَمَةِ المَدينَةِ بِقِيادَةِ قُرَيْشٍ ، وَعَلى رَأْسِها أَبو سُفْيانَ .
اِسْتَراحَ قادَةُ بَني النَّضيرِ إِلى فَعْلَتِهِمْ ، وَكَبُرَ في ظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ أَلَّبوا (جَمَعوا) العَرَبَ ضِدَّ مُحَمَّدٍ وَالمُسْلِمينَ، وَأَنَّ القَضاءَ عَلَيْهِمْ أَصْبَحَ وَشيكاً - فَذَهَبوا إِلى أَبْناءِ عَمِّهِمْ (بَني قُرَيْظَةَ) الَّذينَ كانوا لا يَزالونَ يَعيشونَ في المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، وَيُساكِنونَ الرَّسولَ ﷺ وَالمُسْلِمينَ ، وَكانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُسْلِمينَ عَهْدُ اللهِ وَميثاقُهُ - ذَهَبوا إِلَيْهِمْ وَجادَلوهُمْ في نَقْضِ المُعاهَدَهِ الَّتي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُسْلِمينَ ، فَقالَ لَهُمْ رَئيسُ بَني قُرَيْظَةَ : « إِنَّنا لَمْ نَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ إِلا وَفاءً وَصِدْقاً ؛ فَلِماذا نَنْقُضُ المُعاهَدَةَ ؟»

« لَقَدْ جِئْناكَ بِعِزِّ الدُّنْيا وَسِيادَتِها ، فَمَتى قَضَيْنا عَلى مُحَمَّدٍ وَمَنْ مَعَهُ - أَصْبَحَتِ المَدينَةُ في قَبْضَتِنا ، وَتَحْتَ سَيْطَرَتِنا ، وَتَحَكَّمْنا في اقْتِصادِها وَتِجارَتِها وَزَرْعِها .»

وَما زالوا بِهِ ، يُغْرونَهُ بِنَقْضِ المُعاهَدَةِ ، وَيُزَيِّنونَ لَهُ المَكْسَبَ الكَبيرَ الَّذي سَيُحَقِّقونَهُ مِنْ وَراءِ القَضاءِ عَلى مُحَمَّدٍ وَمَنْ مَعَهُ ، وَيَسْتَميلونَهُ بِما بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ مِنْ دينٍ

وَقَرابَةٍ ، وَيُخَوِّفونَهُ مِمّا بَيْنَهُمْ جَميعًا وَبَيْنَ الْمُسْلِمينَ مِنْ عَداوَةٍ – ما زالوا بِهِ حَتّى خَضَعَ لِقَوْلِهِمْ ، وَرَضَخَ لِرَأْيِهِمْ ، وَاسْتَجابَ لَهُمْ ؛ فَنَقَضَ الْمُعاهَدَةَ الَّتي كانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّسولِ ﷺ – وَالْمُسْلِمينَ . وَتَحالَفَ مَعَ قَوْمِهِ وَالْعَرَبِ الْمُشْرِكينَ ، وَ وَعَدَهُمْ بِأَنَّهُ حينَ تُحاصِرُ الْقَبائِلُ الْعَرَبِيَّةُ (قُرَيْشٌ وَمَنْ مَعَها) الْمَدينَةَ ، وَتَشْتَدُّ وَطْأَةُ الْحِصارِ عَلى الْمُسْلِمينَ – حينَ ذَلِكَ يَهْجُمُ عَلَيْهِمْ بَنو قُرَيْظَةَ مِنَ الدّاخِلِ ، وَيَطْعَنونَهُمْ مِنَ الْخَلْفِ ، فَيَقَعُ الْمُسْلِمونَ بَيْنَ نارَيْنِ : نارِ الْقَبائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُحاصِرَةِ لَهُمْ مِنَ الْخارِجِ ، وَنارِ يَهودِ بَني قُرَيْظَةَ الْمُهاجِمينَ لَهُمْ مِنَ الدّاخِلِ ؛ وَبِذَلِكَ يَتِمُّ الْقَضاءُ عَلَيْهِمْ ، وَتَخْلو الْمَدينَةُ مِنْهُمْ .

طارَ إِلى الرَّسولِ ﷺ خَبَرُ هَذِهِ الْقُوَّةِ الَّتي لَمْ يَشْهَدْ لَها الْعَرَبُ مَثيلًا مِنْ قَبْلُ ، وَجاءَهُ أَنَّ هَذا التَّجَمُّعَ الْعَسْكَرِيَّ في طَريقِهِ إِلى مُحاصَرَةِ الْمَدينَةِ . جَمَعَ الرَّسولُ ﷺ الْمُسْلِمينَ ، وَأَخْبَرَهُمْ بِما وَصَلَهُ مِنْ أَخْبارٍ ، وَطَلَبَ رَأْيَهُمْ .

قالَ الْمُسْلِمونَ في أَنْفُسِهِمْ : « لَقَدْ أَكْرَهْنا الرَّسولَ ﷺ

عَلى الْخُروجِ إِلى الْقِتالِ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَكانَتْ هَزيمَتُنا ! يا لَيْتَ الْوَحْيَ يَأْتيهِ بِالتَّصَرُّفِ الصَّحيحِ ؛ فَنُنَفِّذَهُ وَنَنْصاعَ لَهُ ، وَنَسْتَريحَ مِنَ الْمَشورَةِ الَّتي لا نَعْرِفُ عَواقِبَها .»

وَبَعْدَ تَفْكيرٍ طَويلٍ ، وَتَقْليبِ الرَّأْيِ عَلى وُجوهِهِ الْمُخْتَلِفَةِ – اسْتَقَرَّ رَأْيُ الرَّسولِ ﷺ وَالْمُسْلِمينَ عَلى الْبَقاءِ داخِلَ الْمَدينَةِ ، وَالدِّفاعِ عَنْها ،حَتّى يَتَحَقَّقَ لَهُمُ النَّصْرُ ، أَوْ يَكونَ الاسْتِشْهادُ . وَراحوا يَنْظُرونَ إِلى مَدينَتِهِمْ : كَيْفَ يُحَصِّنونَها مِنْ عَدُوِّهِمْ ؟

وَجَدوا أَنَّ أَضْعَفَ نُقْطَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يَنْفُذَ مِنْها الْعَدُوُّ ، وَيَدْخُلَ الْمَدينَةَ – هِيَ الشَّمالُ الْغَرْبِيُّ . وَأَخَذوا يُفَكِّرونَ في الطَّريقَةِ الَّتي يُقَوّونَ بِها هَذا الْجُزْءَ الضَّعيفَ مِنَ الْمَدينَةِ ، وَكَيْفَ يَعْمَلونَ عَلى تَحْصينِهِ حَتّى يُمْكِنَهُمُ الدِّفاعُ عَنْهُ ؟

تَعَدَّدَتِ الْآراءُ ، وَاخْتَلَفَتْ وُجْهاتُ النَّظَرِ ، وَبانَتِ الْحَيْرَةُ عَلى وُجوهِ الْكَثيرِ مِنَ الْمُسْلِمينَ . وَبَيْنَما هُمْ في هَذِهِ الْحَيْرَةِ الَّتي تَعْلو الْوُجوهَ ، وَتُخْرِسُ الْأَلْسِنَةَ – بَرَقَتْ بارِقَةٌ في رَأْسِ « سَلْمانَ الْفارِسِيِّ » ، وَلَمَعَتْ في ذِهْنِهِ فِكْرَةٌ ،

بَدَّدَتْ حَيْرَةَ المُسْلِمينَ ، وَأضاءَتْ أمامَهُمُ الطَّريقَ .

قالَ « سَلْمانُ » : « كُنّا في فارِسَ إذا أحاطَ بِنا العَدُوُّ ، وَأحْدَقَ بِإحْدى المُدُنِ – حَفَرْنا حَوْلَها خَنْدَقًا واسِعًا عَميقًا، لا يَسْتَطيعُ العَدُوُّ أنْ يَتَخَطّاهُ ، فَيَقِفَ مِنْ دونِهِ عاجِزًا، وَيَرْتَدَّ عَلى أعْقابِهِ خاسِرًا .»

رَحَّبَ الرَّسولُ ﷺ وَالمُسْلِمونَ مَعَهُ بِهَذِهِ الفِكْرَةِ ، الَّتي أضاءَ اللهُ بِها عَقْلَ سَلْمانَ ، وَرَكِبَ فَرَسًا وَمَعَهُ جَماعَةٌ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأنْصارِ ، وَخَطَّ ﷺ مَكانَ الخَنْدَقِ .

أخَذَ المُسْلِمونَ يَحْفِرونَ خَنْدَقًا عَميقًا واسِعًا في الشَّمالِ الغَرْبِيِّ مِنَ المَدينَةِ ، وَهِيَ النُّقْطَةُ الضَّعيفَةُ والجِهَةُ المَفْتوحَةُ، الَّتي يُمْكِنُ أنْ يَدْخُلَ مِنْها العَدُوُّ ، وَيَلِجَ المَدينَةَ عَلى أصْحابِها المُسْلِمينَ .

وَقَدْ عَمِلَ المُسْلِمونَ كُلُّهُمْ في حَفْرِ الخَنْدَقِ ، وَفي مُقَدِّمَتِهِمْ رَسولُ اللهِ ﷺ ، كانَ يَحْمِلُ التُّرابَ عَلى ظَهْرِهِ ، حَتّى غَطّى التُّرابُ جِلْدَ بَطْنِهِ ، وَكانَ سَلْمانُ الفارِسِيُّ يَعْمَلُ بِجِدٍّ وَصَبْرٍ لا يَنْفَدُ ، يَعْمَلُ عَمَلَ رِجالٍ كَثيرينَ ،

حَتّى تَنافَسَ فيهِ المُهاجِرونَ وَالأنْصارُ ، كُلٌّ يَنْسُبُهُ إلَيْهِ .

قالَتِ الأنْصارُ : « سَلْمانُ مِنّا .»

وَقالَ المُهاجِرونَ : « سَلْمانُ مِنّا .»

فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « سَلْمانُ مِنّا – أهْلَ البَيْتِ .»

فارْتَفَعَتْ مَنْزِلَةُ سَلْمانَ ، وَعَلَتْ مَكانَتُهُ ؛ فَقَدْ أصْبَحَ مِنْ آلِ بَيْتِ الرَّسولِ ﷺ .

وَكانَ أبو بَكْرٍ وَعُمَرُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُما – يَعْمَلانِ إلى جانِبِ الرَّسولِ ﷺ وَيَحْمِلانِ التُّرابَ في ثِيابِهِما حينَ لَمْ يَجِدا وِعاءً يَحْمِلانِ فيهِ . وَاشْتَغَلَ في حَفْرِ الخَنْدَقِ كُلُّ الغِلْمانِ ، مَنْ بَلَغَ مِنْهُمُ الحُلُمَ ، وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْ ، مِنْهُمْ : عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ، وَزَيْدُ بْنُ ثابِتٍ ، وَأبو سَعيدٍ الخُدْرِيُّ.

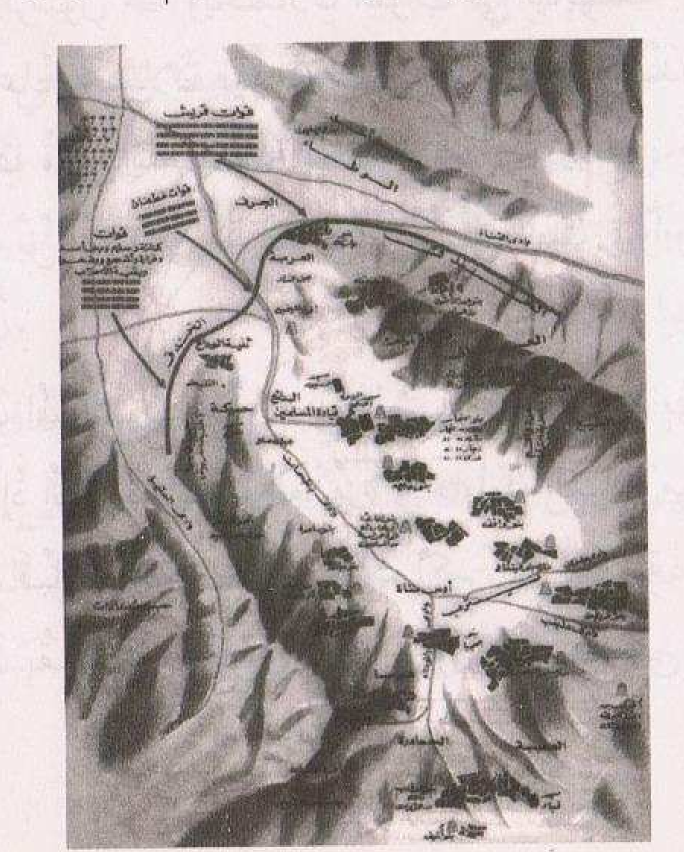
كانَ المُسْلِمونَ يَجِدّونَ في العَمَلِ ، وَيَعْمَلونَ بِهِمَّةٍ لا تَفْتُرُ ؛ إذْ إنَّهُمْ يُسابِقونَ العَدُوَّ ، وَيُحاوِلونَ الفَراغَ مِنْ حَفْرِ الخَنْدَقِ قَبْلَ وُصولِ جُيوشِ المُشْرِكينَ إلى المَدينَةِ . كانوا يَعْمَلونَ بِقُوَّةٍ وَدَأبٍ طَوالَ النَّهارِ ، وَيَسْتَعينونَ عَلى الجَهْدِ

الجَهيدِ بِما يُنْشِدُ عَبْدُ اللهِ بْنُ رواحَةَ ، وَيُرَدِّدونَهُ وَراءَهُ :

لا هُمَّ لَوْلا أنْتَ ما اهْتَدَيْنا   وَلا تَصَدَّقْنا ، وَلا صَلَّيْنا
فَأنْزِلَنْ سَكينَةً عَلَيْنا   وَثَبِّتِ الأقْدامَ إنْ لاقَيْنا
وَالمُشْرِكونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنا   وإنْ أرادوا فِتْنَةً أبَيْنا
وَلَوْ عَبَدْنا غَيْرَهُ شَقينا   يا حَبَّذا رَبا ، وَحَبَّذا دِينا

حَتّى إذا ما جَنَّ اللَّيْلُ اسْتَراحوا .

ظَلّوا كَذلِكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا يُقاوِمونَ التَّعَبَ ، وَيَصْبِرونَ عَلى العَمَلِ حَتّى يَسَّرَ اللهُ لَهُمْ ما أرادوا ، وَحَقَّقَ



لَهُمْ ما رَغِبوا فيهِ ، وَتَمَّ لَهُمْ حَفْرُ الخَنْدَقِ ، فَأخَذوا يَتَأهَّبونَ لِمُلاقاةِ العَدُوِّ ، وَيُجَهِّزونَ أنْفُسَهُمْ لِلدِّفاعِ عَنْ دينِهِمْ وَأرْضِهِمْ . وَأرادَ الرَّسولُ ﷺ أنْ يَطْمَئِنَّ عَلى النِّساءِ وَالأطْفالِ ؛ فَجَعَلَهُنَّ في الحُصونِ الآمِنَةِ ، وَأمَرَهُنَّ إذا رَأيْنَ غادِرًا أوْ خائِنًا أنْ يَلْمَعْنَ (يُشِرْنَ) بِالسَّيْفِ .

ثُمَّ عَسْكَرَ رَسولُ اللهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمينَ ، وَكانَ عَدَدُهُمْ ثَلاثَةَ آلافِ مُقاتِلٍ ، وَجَعَلَ الخَنْدَقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأعْداءِ ، وَكانَ ذَلِكَ في اليَوْمِ التّاسِعِ مِنْ شَهْرِ ذي القَعْدَةِ ، في السَّنَةِ الخامِسَةِ مِنَ الهِجْرَةِ .

ثُمَّ أرْسَلَ ﷺ رَجُلَيْنِ ، يَسْتَطْلِعانِ أخْبارَ المُشْرِكينَ ، وَيَسْتَكْشِفانِ أمْرَهُمْ ، فَرَأيا جَيْشًا كَثيرًا كَثيفًا ، يَكْسو الصَّحْراءَ ، وَيَتَحَرَّكُ في بُطْءٍ شَديدٍ لِكَثْرَةِ عَدَدِهِ ، وَثِقَلِ عُدَّتِهِ . وَلَمْ يَعودا إلى الرَّسولِ ﷺ لِيُخْبِراهُ بِما وَقَعَ عَلَيْهِ بَصَرُهُما ؛ فَقَدْ وَقَعا في الأسْرِ ، وَقَتَلَهُما قائِدُ جَيْشِ المُشْرِكينَ أبو سُفْيانَ ، وَاسْتَبْشَرَ بِذلِكَ خَيْرًا ، فَتَوَهَّمَ أنَّ النَّصْرَ عَلى المُسْلِمينَ باتَ قَريبًا ، وَأنَّ القَضاءَ عَلى مُحَمَّدٍ وَمَنْ مَعَهُ غَدا وَشيكًا .

وَصَلَ المُشْرِكونَ إلى المَدينَةِ ، وَهُمْ يُمَنّونَ أَنْفُسَهُمْ بِسَحْقِ المُسْلِمينَ وَتَدْميرِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ حينَ وَقَعَتْ أَبْصارُهُمْ عَلى الخَنْدَقِ اسْوَدَّتْ وُجوهُهُمْ ، وَتَغَيَّرَتْ سَحْنَتُهُمْ ، وَضاقَتْ نُفوسُهُمْ ، وَاغْتاظوا غَيْظاً شَديداً – فَكَيْفَ يَقْتَحِمونَ المَدينَةَ عَلى المُسْلِمينَ ، وَهَذا الخَنْدَقُ قائِمٌ ، يَحولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الاقْتِحامِ ؟

قالَ المُشْرِكونَ : « إنَّ هذِهِ مَكيدَةٌ لَمْ تَعرِفْها العَرَبُ مِنْ قَبْلُ . إنَّنا لا نَعْرِفُ غَيْرَ القِتالِ وَالمُبارَزَةِ رَجُلاً لِرَجُلٍ ، فَمَنِ الَّذي أَشارَ عَلى مُحَمَّدٍ بِهَذا الخَنْدَقِ الرَّهيبِ ؟ »

وَ مَرَّتِ الأَيّامُ، وَالمُشْرِكونَ لا يَسْتَطيعونَ اقْتِحامَ الخَنْدَقِ ، وَلَيْس بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُسْلِمينَ إلا التَّراشُقُ بِالنِّبالِ، وَالرَّمْيِ بِالحَصى ، لَكِنَّ نَوْبَةً مِنَ الحَنَقِ وَالغَيْظِ تُسَيْطِرُ عَلى رَجُلٍ مِنَ المُشْرِكينَ ، اسْمُهُ نَوْفَلُ بْنُ المُغيرَةِ ، فَيُصِرُّ عَلى اقْتِحامِ الخَنْدَقِ ، وَقِتالِ المُسْلِمينَ ، وَالنَّيْلِ مِنْهُمْ ، وَيَسْتَبِدُّ بِهِ الغَضَبُ فَيَدْفَعُ فَرَسَهُ لِيَثِبَ ، فَيَسْقُطُ في قاعِ الخَنْدَقِ ، وَيَأْخُذُ المُسْلِمونَ في قَذْفِهِ بِالحِجارَةِ . وَلَكِنَّ الرَّجُلَ يَصيحُ

بِهِمْ مِنْ قاعِ الخَنْدَقِ : « قِتْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ ، يا مَعْشَرَ العَرَبِ ! »

فَيَنْزِلُ إلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ ، وَيَضْرِبُهُ بِسَيْفِهِ البَتّارِ ، فَيَقْطَعُهُ نِصْفَيْنِ .. وَيُكَبِّرُ المُسْلِمونَ ، وَيَتَعالى تَكْبيرُهُمْ ، فَيَأْكُلُ الغَيْظُ أَكْبادَ المُشْرِكينَ .

ثُمَّ يَبْعَثُ المُشْرِكونَ إلى الرَّسولِ ﷺ يَقولونَ : « أَعْطِنا جُثَّتَهُ و نُعْطيكَ في مُقابِلِها اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَم . »

فَيَقولُ الرَّسولُ ﷺ لِلْمُسْلِمينَ : « لا خَيْرَ في جُثَّتِهِ ، وَلا خَيْرَ في ثَمَنِهِ ! ادْفَعوهُ إلَيْهِم ؛ فَإنَّهُ خَبيثُ الجَسَدِ ، خَبيثُ الدِّيَةِ (العِوَضِ) . »

وَيَصِلُ خَبَرُ بَني قُرَيْظَةَ وَنَقْضُهُمُ العَهْدَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَكانَ أَوَّلَ مَنْ سَمِعَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ؛ فَسَعى إلى رَسولِ اللهِ ﷺ وَقالَ لَهُ : « يا رَسولَ اللهِ، لَقَدْ نَقَضَ بَنو قُرَيْظَةَ العَهْدَ ، وَتَحالَفوا مَعَ المُشْرِكينَ . »

وَأَرادَ الرَّسولُ ﷺ أَنْ يَسْتَوْثِقَ مِنْ صِحَّةِ الخَبَرِ ؛ فَأَرْسَلَ سَعْدَ بْنَ مُعاذٍ وَمَعَهُ جَماعَةٌ مِنَ المُسْلِمينَ لِيَتَعَرَّفوا أَخْبارَ بَني

قُرَيْظَةَ ، وَلِيَتأَكَّدوا مِنْ صِدْقِ ما سَمِعوهُ ، وَأوْصاهُمْ – إذا وَجَدوا بَني قُرَيْظَةَ قَدْ خانوا العَهْدَ – ألّا يُصَرِّحوا لَهُ بِذَلِكَ أمامَ المُسْلِمينَ ، وَأنْ يَلْحَنوا لَهُ بِقَوْلٍ يَفْهَمُهُ وَحْدَهُ ، وَلا يَفْهَمُهُ الآخَرونَ ؛ حَتّى لا يُثَبِّطَ ذَلِكَ مِنْ عَزيمَتِهِمْ ، وَيَفُتَّ في عَضُدِهِمْ .

وَذَهَبَ « سَعْدٌ » وَمَنْ مَعَهُ فَوَجَدوا الخَبَرَ صَحيحاً ، لَقَدْ خانَ بَنو قُرَيْظَةَ ، وَنَقَضوا العَهْدَ الَّذي كانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُسْلِمينَ ، وَتَحالَفوا مَعَ المُشْرِكينَ ، وَقَرَّروا أنْ يَنْقَضّوا عَلى المُسْلِمينَ مِنْ خَلْفِهِمْ. فَلَمّا رَجَعوا إلى رَسولِ اللهِ ﷺ خاطَبوهُ بِكَلامٍ يَفْهَمُهُ وَيَعْرِفُ مِنْهُ صِدْقَ الخَبَرِ الَّذي نَقَلَهُ إلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ .

اِشْتَدَّ البَلاءُ عَلى الرَّسولِ ﷺ ، وَلَكِنَّهُ واثِقٌ بِرَبِّهِ ، واثِقٌ بِأنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ ، واثِقٌ بِأنَّ اللهَ مُظْهِرٌ دينَهُ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكونَ . وَعَرَفَ المُسْلِمونَ الخَبَرَ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الكَرْبُ : المُشْرِكونَ يُحاصِرونَهُمْ ، وَبَنو قُرَيْظَةَ مِنْ خَلْفِهِمْ ، لَقَدْ وَقَعوا في شِدَّةٍ لا يُخْرِجُهُمْ مِنْها إلا رَبُّهُمْ . وَاتَّجَهَتْ

عُيونُهُمْ إلى الرَّسولِ ﷺ ، يَلْتَمِسونَ نُصْحَهُ ، وَيَنْتَظِرونَ أمْرَهُ ، فَاضْطَجَعَ الرَّسولُ ثُمَّ اعْتَدَلَ بَعْدَ قَليلٍ ، وَبَشَّرَ المُسْلِمينَ بِنَصْرِ اللهِ القَريبِ .

ضاقَ المُشْرِكونَ بِالحِصارِ ، وَبِالخَنْدَقِ الَّذي يَعوقُ حَرَكَتَهُمْ ، فَبَحَثوا عَنْ نُقْطَةِ ضَعْفٍ في الخَنْدَقِ ؛ فَعَثَروا عَلى ثُغْرَةٍ فيهِ – وَجَدوا مَكاناً ضَيِّقاً ، فَدَفَعَ جَماعَةً مِنَ الفُرْسانِ خُيولَهُمْ فَاقْتَحَمَتِ الخَنْدَقَ ، كانَ مِنْ بَيْنِهِمْ فارِسُ العَرَبِ عَمْرُو بْنُ وُدٍّ الَّذي أخَذَ يَصْرُخُ في المُسْلِمينَ : « مَنْ يُبارِزُ ؟ أَلَسْتُمْ تَقولونَ إنَّ قَتْلاكُمْ في الجَنَّةِ ؟ هَلُمّوا إلَيَّ ! »

وَفي كُلِّ مَرَّةٍ كانَ عَلِيُّ بْنُ أبي طالِبٍ يَطْلُبُ مِنَ الرَّسولِ ﷺ أنْ يَأْذَنَ لَهُ بِالقِيامِ إلَيْهِ ، وَمُبارَزَتِهِ ، فَكانَ الرَّسولُ ﷺ يُجْلِسُهُ ، وَيَقولُ لَهُ : « إنَّهُ عَمْرٌو ، يا عَلِيُّ ! »

وَكانَ عَمْرٌو هَذا قَدْ فَرَّ هارِباً في يَوْمِ بَدْرٍ ، وَلَمْ يَحْضُرْ مَعَ المُشْرِكينَ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَأَرادَ أنْ يَمْسَحَ العارَ الَّذي لَطَّخَهُ بِفِرارِهِ ؛ فَحَضَرَ مَعَهُمْ غَزْوَةَ الخَنْدَقِ . وَأَحَبَّ أنْ يُظْهِرَ

لِقَوْمِهِ شَجاعَتَهُ وَفُروسِيَّتَهُ ، وَأَنْ يُثْبِتَ لَهُمْ أَنَّهُ لا يَزالُ فارِسَ العَرَبِ الَّذي لا يُشَقُّ لَهُ غُبارٌ .

تَكَرَّرَ صِياحُ عَمْرٍو ، وَتَكَرَّرَ طَلَبُ عَلِيٍّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، وَلَمْ يَتَحَرَّكْ غَيْرُهُ مِنَ المُسْلِمينَ . فَأَذِنَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ ، وَقالَ: « قُمْ إِلَيْهِ ، وَاللهُ مَعَكَ .»

وَاسْتَطاعَ عَلِيٌّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أَنْ يَنْتَهِزَ فُرْصَةً مِنْ عَمْرٍو ، وَيَضْرِبَهُ بِسَيْفِهِ فَيَقْتُلَهُ ؛ فَتَعالَتْ تَكْبيراتُ المُسْلِمينَ، وَظَهَرَ البِشْرُ عَلى وَجْهِ الرَّسولِ الكَريمِ ، وَ وَلّى بَقِيَّةُ الفُرْسانِ المُشْرِكينَ الأَدْبارَ !

اِجْتَمَعَ رُؤَساءُ المُشْرِكينَ بِقِيادَةِ « أَبي سُفْيانَ » – بَعْدَ أَنْ قُتِلَ عَمْرٌو ، وَفَرَّتْ خَيْلُهُمْ – وَتَشاوَروا في أَمْرِهِمْ ، وَتَدارَسوا المَوْقِفَ ، وَقَرَّروا القِيامَ بِمَعْرَكَةٍ فاصِلَةٍ ؛ فَقَدْ طالَتْ مُدَّةُ الحِصارِ ، وَلَمْ يَنالوا مِنَ المُسْلِمينَ شَيْئًا. وَباتوا يُعَبِّئونَ جَيْشَهُمْ ، وَيَحُضّونَ جُنودَهُمْ عَلى القِتالِ ، وَيُحَمِّسونَهُمْ لِيَتَخَلَّصوا مِنَ الإِسْلامِ وَالمُسْلِمينَ .

وَفي الصَّباحِ اقْتَحَمَتْ كَتيبَةٌ مِنْ فُرْسانِ المُشْرِكينَ

الخَنْدَقَ ، عِنْدَ الثُّغْرَةِ الَّتي عَثَروا عَلَيْها ، وَدارَتْ مَعْرَكَةٌ قَوِيَّةٌ عَنيفَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُسْلِمينَ ، وَاسْتَمَرَّتْ طَوالَ النَّهارِ ، وَجُزْءًا مِنَ اللَّيْلِ ، حَتّى إِنَّ المُسْلِمينَ كانوا يُقاتِلونَ وَيَقولونَ : « ما صَلَّيْنا .»

وَالرَّسولُ ﷺ يَقولُ لَهُمْ : « وَلا أَنا صَلَّيْتُ .»

وَابْتُلِيَ المُؤْمِنونَ ابْتِلاءً قَوِيا ، وَزُلْزِلوا زِلْزالاً شَديدًا ، وَصَبَروا عَلى الحَرْبِ صَبْرًا رائِعًا ، حَتّى انْقَشَعَتْ كَتيبَةُ المُشْرِكينَ ، وَ وَلَّتِ الأَدْبارَ ، وَانْهَزَمَتْ أَمامَ المُؤْمِنينَ الصّابِرينَ ، وَعادَ مَنْ بَقِيَ مِنْها حَيًّا إِلى مُعَسْكَرِ المُشْرِكينَ، يَجُرُّ أَذْيالَ الخَيْبَةِ وَالخُسْرانِ .

وَبَعْدَ انْتِهاءِ المَعْرَكَةِ ، أَمَرَ الرَّسولُ ﷺ بِلالا أَنْ يُؤَذِّنَ لِلصَّلاةِ ، وَصَلّى بِالمُسْلِمينَ الصَّلَواتِ الَّتي فاتَتْهُمْ .

في هَذا الوَقْتِ أَسْلَمَ رَجُلٌ اسْمُهُ « نُعَيْمُ بْنُ مَسْعودٍ » مِنْ قَبيلَةِ « غَطَفانَ » ، الَّتي كانَتْ ضِمْنَ مُعَسْكَرِ المُشْرِكينَ المُحاصِرينَ لِلْمَدينَةِ . وَ جاءَ إِلى الرَّسولِ ﷺ ، وَقالَ لَهُ : « لَقَدْ أَسْلَمْتُ، يا رَسولَ اللهِ ، وَقَوْمي لا

يَعْلَمونَ بِإسْلامي ، فَمُرْني ماذا أَفْعَلُ ؟»

قالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : « إِنَّما أَنْتَ رَجُلٌ واحِدٌ ، فَخَذِّلْ عَنّا ما اسْتَطَعْتَ ، إِنَّما الحَرْبُ خُدْعَةٌ .»

كانَ « نُعَيْمٌ » صَديقًا لِبَني قُرَيْظَةَ ، وَصَديقًا لِقُرَيْشٍ ، وَهُوَ مِنْ قَبيلَةِ غَطَفانَ ، مِنْ سادَتِهِمْ وَأَشْرافِهِمْ ، مُصَدَّقٌ عِنْدَهُمْ ، مَقْبولٌ لَدَيْهِمْ ؛ فاهْتَدى إِلى فِكْرَةٍ خامَرَتْ نَفْسَهُ ، وَدارَتْ في ذِهْنِهِ ، وَاسْتَراحَ إِلَيْها عَقْلُهُ .

إِنَّ خَيْرَ ما يَسْتَطيعُ عَمَلَهُ هُوَ أَنْ يُفْسِدَ هَذا التَّحالُفَ الَّذي تَمَّ بَيْنَ بَني قُرَيْظَةَ وَالْمُشْرِكينَ ، وَيَفُكَّ هَذا الرِّباطَ القَوِيَّ المَتينَ الَّذي رَبَطَ بَعْضَهُمْ إِلى بَعْضٍ .

ذَهَبَ إِلى بَني قُرَيْظَةَ مُسْتَخْفِيًا ، وَقالَ لَهُمْ : « تَعْلَمونَ مَدى صَداقَتي لَكُمْ ، وَحِرْصي عَلى مَصْلَحَتِكُمْ .»

قالوا : « أَنْتَ عِنْدَنا مُصَدَّقٌ .. فَما الأَمْرُ ؟»

قالَ : « لَقَدْ بَلَغَني أَمْرٌ شَعَرْتُ أَنَّهُ يَضُرُّكُمْ ، فَحَرَصْتُ عَلى تَبْليغِهِ لَكُمْ ، وَأَنْتُمْ أَحْرارٌ في اتِّخاذِ قَرارِكُمْ .»

قالوا : « ما هُوَ ؟ لَقَدْ بَذَرْتَ القَلَقَ في نُفوسِنا .»

قالَ : « تَعْلَمونَ أَنَّ قُرَيْشًا وَمَنْ مَعَها مِنَ العَرَبِ لا يُقيمونَ في هَذِهِ البِلادِ ، وَنِساؤُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ في بِلادِهِمْ ، وَقَدْ تَعاهَدوا مَعَكُمْ عَلى حَرْبِ مُحَمَّدٍ وَمَنْ مَعَهُ ، فَإِنْ أَصابوا فُرْصَةً انْتَهَزوها ، وَإِنْ دارَتِ الدّائِرَةُ عَلَيْهِمْ ، وَانْهَزَموا في الحَرْبِ – انْقَلَبوا راجِعينَ إِلى بِلادِهِمْ ، وَتَرَكوكُمْ وَحْدَكُمْ تُواجِهونَ مُحَمَّدًا وَصَحْبَهُ ، وَحينَئِذٍ لا تَقْدِرونَ عَلى حَرْبِهِ ، وَلا تَسْتَطيعونَ قِتالَهُ .»

قالَ بَنو قُرَيْظَةَ : « وَما الرَّأْيُ عِنْدَكَ ، يا نُعَيْمُ ؟ بِماذا تُشيرُ عَلَيْنا ؟ إِنَّكَ صَديقٌ صَدوقٌ !»

وَجَدَ « نُعَيْمٌ » الفُرْصَةَ مُواتِيَةً ، لِيَسْقِيَ بَذْرَةَ الشَّكِّ الَّتي وَضَعَها ، وَيَعْمَلَ عَلى تَنْمِيَتِها في نُفوسِ بَني قُرَيْظَةَ ، حَتّى تَسْتَغْلِظَ وَتَقْوى وَتَمْلأَ نُفوسَهُمْ كُلَّها .

صَمَتَ « نُعَيْمٌ » صَمْتًا طَويلا ، كَأَنَّهُ يُفَكِّرُ وَيُقَلِّبُ الأَمْرَ ، وَبَنو قُرَيْظَةَ تَتَطَلَّعُ عُيونُهُمْ إِلَيْهِ ، وَتَتَرَكَّزُ أَبْصارُهُمْ عَلى شَفَتَيْهِ .

تَمَلْمَلَ « نُعَيْمٌ » في مَجْلِسِهِ ، ثُمَّ قالَ : « أَرى أَنْ تَبْعَثوا

إلى قُرَيْشٍ وغَطَفانَ ، وتَطْلُبوا مِنْهُما رِجالاً مِنْ أشْرافِهِمْ ، يَكونونَ رَهْنًا عِنْدَكُمْ ، فَإنْ أجابوكُمْ إلى طَلَبِكُمْ عَرَفْتُمْ صِدْقَهُمْ مَعَكُمْ ، وَاطْمَأَنَّتْ صُدورُكُمْ إلَيْهِمْ وَإنْ رَفَضوا عَرَفْتُمْ أَنَّهُمْ سَيَتْرُكونَكُمْ وَشَأنَكُمْ مَعَ مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ .»

قالَ بَنو قُرَيْظَةَ : « نِعْمَ الرَّأيُ ما رَأَيْتَ ، يا نُعَيْمُ !»

اِطْمَأَنَّ قَلْبُ « نُعَيْم » إلى ما فَعَلَ ، وَأَحَسَّ رِضا اللهِ وَرَسولِهِ عَنْهُ ، فَأَخَذَ يَحُثُّ الخُطا ، وَيُسْرِعُ إلى قُرَيْشٍ .

لَقِيَ أبا سُفْيانَ ، فَقالَ لَهُ : « تَعْلَمُ ، يا أبا سُفْيانَ ، صَداقَتي لَكَ ، وَمَوَدَّتي لِقُرَيْشٍ .»

قالَ أبو سُفْيانَ : « ما رَأَيْتُ مِنْكَ إلا إخْلاصًا وَ وَفاءً .. ما الخَبَرُ يا نُعَيْمُ ؟»

قالَ نُعَيْمٌ : « لَقَدْ بَلَغَني خَبَرٌ عَنْ بَني قُرَيْظَةَ ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُبَلِّغَهُ لَكَ لِتَرى رَأْيَكَ ، وَتَأْخُذَ حِذْرَكَ .»

قالَ أبو سُفْيانَ – وَهُوَ مُتَلَهِّفٌ لِسَماعِ ما عِنْدَ نُعَيْمٍ : « ماذا بَلَغَكَ ، يا نُعَيْمُ ؟»

قالَ نُعَيْمٌ : « بَلَغَني أَنَّ بَني قُرَيْظَةَ قَدْ نَدِموا عَلى

تَحالُفِهِمْ مَعَنا ، وَنَقْضِهِمُ المُعاهَدَةَ الَّتي كانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ، وَذَهَبوا إلَيْهِ نادِمينَ ، طالِبينَ عَفْوَهُ وَصَفْحَهُ ، وَاتَّفَقوا مَعَهُ أَنْ يَأْخُذوا مِنْكُمْ عَشَرَةَ رِجالٍ مِنْ أَشْرافِكُمْ ، وَيُسَلِّموهُمْ إلَيْهِ لِيَقْتُلَهُمْ .»

غَضِبَ أبو سُفْيانَ ، وَقالَ : « بِئْسَ القَوْمُ بَنو قُرَيْظَةَ ، وما رَأَيْنا مِنْهُمْ إلا شَرًّا !»

قالَ لَهُ نُعَيْمٌ : « لا يُخْرِجَنَّكَ الغَضَبُ عَنْ وَقارِكَ ، يا أبا سُفْيانَ ، وَانْتَظِرْ حَتَّى يَتَّضِحَ لَكَ الأَمْرُ ؛ فَقَدْ يَكونُ ما بَلَغَني غَيْرَ دَقيقٍ .»

أَيْقَنَ « نُعَيْمٌ » أَنَّهُ بَلَغَ مِنْ أبي سُفْيانَ ما أَرادَ ، وَأَنَّهُ زَرَعَ في صَدْرِهِ شَجَرَةَ الشَّكِّ ، الَّتي سَتَنْمو وَتَتَفَرَّعُ حَتَّى تَمْلأَ كُلَّ جَوانِحِهِ ، فَانْطَلَقَ مُسْرِعًا إلى غَطَفانَ قَبيلَتِهِ ، وَقالَ مِثْلَ ما قالَ لأبي سُفْيانَ .

اِجْتَمَعَ رُؤَساءُ المُشْرِكينَ بِقِيادَةِ أبي سُفْيانَ ؛ لِيَتَدَبَّروا أَمْرَهُمْ ، وَلِيَتَدارَسوا مَوْقِفَهُمْ ، ثُمَّ أَرْسَلوا إلى بَني قُرَيْظَةَ يَقولونَ : « تَعْلَمونَ أَنَّ مُدَّةَ الحِصارِ قَدْ طالَتْ ، وَأَنَّنا لَمْ

نَنَلْ مِنْ مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ حَتّى اليَوْمِ مَنالا ، وَقَدْ نَقَصَ ما عِنْدَنا مِنْ طَعامٍ حَتّى كادَ يَنفَدُ ، وَنَرى أنْ نَهجُمَ نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلى مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ في الصَّباحِ ، فَنُبيدَهُمْ .»

كانَ ذَلِكَ لَيْلَةَ السَّبْتِ !

قالَ بَنو قُرَيْظَةَ لِمَبْعوثِ المُشْرِكينَ : « غَداً السَّبْتُ ، وَنَحْنُ لا نَعْمَلُ في يَوْمِ السَّبْتِ . كَما أنَّنا لَنْ نُقاتِلَ مَعَكُمْ مُحَمَّداً وَصَحْبَهُ حَتّى تُعْطونا سَبْعينَ رَجُلا مِنْ أشْرافِكُمْ ، يَكونونَ رَهْناً عِنْدَنا ؛ كَيْ نَضْمَنَ أنَّكُمْ إذا ضِقْتُمْ بِالحَرْبِ، وَشَعَرْتُمْ بِالخِذْلانِ - لا تَرْجِعونَ إلى بِلادِكُمْ ، وَتَتْرُكونَنا نُواجِهُ مُحَمَّداً وَحْدَنا ، وَلا طاقَةَ لَنا بِهِ.»

وَلَمّا جاءَ رَدُّ بَني قُرَيْظَةَ ، قالَ المُشْرِكونَ : « إنَّ ما أخْبَرَكُمْ بِهِ « نُعَيْمُ بنُ مَسْعودٍ » لَهُوَ الحَقُّ .»

وَأَرْسَلوا إلى بَني قُرَيْظَةَ يَقولونَ: « واللهِ ، لا نُعْطيكُمْ رِجالا يَكونونَ رَهْناً عِنْدَكُمْ . فَإنْ شِئْتُمْ فَقاتِلوا مَعَنا ، كَما تَعاهَدْنا . وَإنْ أبَيْتُمْ فَأَنْتُمْ وَشَأْنُكُمْ .»

قالَ بَنو قُرَيْظَةَ : « إنَّ الحَقَّ هُوَ ما أخْبَرَكُمْ بِهِ نُعَيْمٌ .»

وَقَعَ الاخْتِلافُ بَيْنَ المُشْرِكينَ وَبَني قُرَيْظَةَ ، وَدَبَّ الخِذْلانُ في صُفوفِهِمْ ، وَبَعَثَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - رِيحًا شَديدَةً بارِدَةً ، لَها صَوْتٌ مِثْلُ الصَّواعِقِ ؛ فاقْتَلَعَتْ خِيامَ المُشْرِكينَ ، وَأَطْفَأَتْ نيرانَهُمْ ، وَكَفَأَتْ قُدورَهُمْ .

وَكانَ المُنافِقونَ الَّذينَ يُظْهِرونَ الإسْلامَ ، وَيُضْمِرونَ الكُفْرَ يَسْتَأْذِنونَ رَسولَ اللهِ ﷺ وَيَقولونَ لَهُ: « إنَّ بُيوتَنا عَوْرَةٌ (مَكْشوفَةٌ) ، وَحيطانَها قَصيرَةٌ ، واللَّيْلَةُ شَديدَةُ الظُّلْمَةِ ، فَأْذَنْ لَنا لِنَذْهَبَ لِحِمايَتِها ؛ فَإنَّنا نَخْشى عَلَيْها السَّرِقَةَ .»

وَأَذِنَ لَهُمْ رَسولُ اللهِ ﷺ حَتّى إنَّهُ لَمْ يَبْقَ مَعَهُ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ المُظْلِمَةِ البارِدَةِ - إلا ثَلاثُمائَةِ رَجُلٍ .

وَقالَ الرَّسولُ ﷺ لِمَنْ بَقِيَ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمينَ : « إنَّهُ كائِنٌ (حادِثٌ) في القَوْمِ أمْرٌ ، فَمَنْ مِنْكُمْ يَذْهَبُ إلى مُعَسْكَرِ المُشْرِكينَ ، وَيَدْخُلُ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَأْتيني بِخَبَرِهِمْ ؟»

لَمْ يَتَحَرَّكْ مِنَ المُسْلِمينَ أحَدٌ ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ تَكْرارِ الرَّسولِ ﷺ قَوْلَهُ ؛ فَقَدْ كانَ البَرْدُ القاسي يُقْعِدُهُمْ ، وَيَشُلُّ قُدْرَتَهُمْ . وَمَرَّ الرَّسولُ ﷺ بَيْنَهُمْ ، وَهُمْ مُنْكَفِئونَ عَلى

أنْفُسِهِمْ ، قَدْ ضَمَّ كُلُّ واحِدٍ أجْزاءَ جِسْمِهِ بَعْضَها إلى بَعْضٍ ، لَعَلَّهُ يَجِدُ بَعْضَ الدِّفْءِ ، فَوَجَدَ « حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمانِ » جاثِيًا على رُكْبَتَيْهِ ، عَلَيْهِ ثَوْبٌ قَصيرٌ لا يُغَطّي جِسْمَهُ ، فَقالَ الرَّسولُ ﷺ : « مَنْ ؟ »

أجابَ : « حُذَيْفَةُ . »

فَناداهُ الرَّسولُ ﷺ : « حُذَيْفَةُ ! » وَلكِنَّ حُذَيْفَةَ لَمْ يَقُمْ مِنْ مَكانِهِ ، وَلَمْ يَنْهَضْ مِنْ جَثْوَتِهِ .

وَكَرَّرَ الرَّسولُ ﷺ النِّداءَ ، ثُمَّ قالَ : « حُذَيْفَةُ ، أَلَمْ تَسْمَعْ صَوْتي ؟ »

أجابَ حُذَيْفَةُ : « بَلى ، يا رَسولَ اللهِ . »

قالَ الرَّسولُ ﷺ : « ما مَنَعَكَ أنْ تَقومَ ؟ »

قالَ حُذَيْفَةُ : « البَرْدُ ، يا رَسولَ اللهِ . »

قالَ الرَّسولُ ﷺ : « لا بَرْدَ عَلَيْكَ حَتّى تَرْجِعَ . قُمْ فَأْتِني بِخَبَرِ القَوْمِ . »

قالَ حُذَيْفَةُ : « يا رَسولَ اللهِ ، واللهِ لا أخْشى القَتْلَ ،

وَلكِنّي أخافُ الأسْرَ . »

قالَ الرَّسولُ ﷺ : « إنَّكَ لَنْ تُؤْسَرَ . اللّهُمَّ احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، وَعَنْ يَمينِهِ ، وَعَنْ شِمالِهِ ، وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ . »

وَبَيْنَما يَهُمُّ بِالذَّهابِ إلى مُعَسْكَرِ الأعْداءِ – ناداهُ الرَّسولُ ﷺ وَقالَ لَهُ : « لا تَرْمِيَنَّ بِسَهْمٍ ، وَلا بِحَجَرٍ ، وَلا تَضْرِبَنَّ بِسَيْفٍ حَتّى تَأْتِيَني . »

اِنْطَلَقَ حُذَيْفَةُ – وَقَدِ انْتَشَرَ الدِّفْءُ في أوْصالِهِ ، وَعَمَّ كُلَّ أطْرافِهِ – حَتّى بَلَغَ مُعَسْكَرَ المُشْرِكينَ ، وَدَخَلَ في جُموعِهِمْ . وَكانَتِ الرّيحُ تُزَمْجِرُ زَمْجَرَةً عالِيَةً ، وَتَقْطَعُ الخِيامَ ، وَتُلْقي القُدورَ ، كَما كانَ الظَّلامُ حالِكًا شَديدَ السَّوادِ . وَسَمِعَ حُذَيْفَةُ صَوْتَ أبي سُفْيانَ : « يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إنَّ الرّيحَ عَنيفَةٌ ، وَإنَّ البَرْدَ قارِسٌ ، وَإنَّ الظَّلامَ حالِكٌ ، وَنَحْنُ لا نَأْمَنُ عَلى أنْفُسِنا ؛ فَلْيَنْظُرْ كُلٌّ مِنْكُمْ مَنْ يُجالِسُهُ ، وَلْيَتَعَرَّفْ عَلى مَنْ يُجاوِرُهُ . »

فَأسْرَعَ حُذَيْفَةُ ؛ كَيْ لا يُفْتَضَحَ أمْرُهُ ، وَأخَذَ بِيَدِ الرَّجُلِ

الجالِسِ على يَمينِهِ ، وَقالَ لَهُ : « مَنْ أنْتَ ؟ »

أجابَ الرَّجُلُ : « مُعاوِيَةُ بْنُ أبي سُفْيانَ . »

وَقَبَضَ حُذَيْفَةُ على يَدِ الجالِسِ على يَسارِهِ ، وَقالَ : « مَنْ أنْتَ ؟ »

أجابَ الرَّجُلُ : « عَمْرو بْنُ العاصِ . »

ثُمَّ قالَ أبو سُفْيانَ : « يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إنَّ هَذِهِ الأرْضَ لَيْسَتْ لَكُمْ بِدارِ مُقامٍ ، وَقَدْ نَفِدَ ما كانَ مَعَنا مِنْ طَعامٍ ، وَقَدْ أخْلَفَ بَنو قُرَيْظَةَ وَعْدَهُمْ ، وَنَقَضوا عَهْدَهُمْ – فارْحَلوا إلى بِلادِكُمْ فَإنِّي مُرْتَحِلٌ . »

وَسَمِعَتْ غَطَفانُ ما قالَتْ قُرَيْشٌ ، فَتَنادَتْ بِالرَّحيلِ !

عادَ حُذَيْفَةُ إلى الرَّسولِ ﷺ فَوَجَدَهُ قائِمًا يُصَلِّي ، وَما إنْ فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ حَتّى أخْبَرَهُ بِما جَرى في مُعَسْكَرِ الأعْداءِ ؛ فَضَحِكَ الرَّسولُ ﷺ حَتّى لَمَعَتْ أسْنانُهُ في الظَّلامِ الشَّديدِ .

وَعاوَدَ البَرْدُ القارِسُ حُذَيْفَةَ ، وَأخَذَ جِسْمُهُ يَرْتَجِفُ مِنْ

شِدَّةِ البَرْدِ ، فَأشارَ إلَيْهِ الرَّسولُ ﷺ ، فَاقْتَرَبَ مِنْهُ ، فَغَطّاهُ بِشَمْلَتِهِ ، فَشَعَرَ بِالدِّفْءِ يَسْري في جِسْمِهِ ، وَنامَ – نامَ نَوْمًا عَميقًا حَتّى أصْبَحَ الصُّبْحُ ، فَأيْقَظَهُ الرَّسولُ ﷺ وَهُوَ يَقولُ لَهُ مُداعِبًا : « قُمْ ، يا نَوْمانُ ! »

وَنَظَرَ الرَّسولُ ﷺ إلى مُعَسْكَرِ الأعْداءِ ، فَإذا هُمْ قَدْ رَحَلوا ، وَإذا خِيامُهُمْ مُقَطَّعَةٌ مُبَعْثَرَةٌ ، وَإذا قُدورُهُمْ مُنْكَفِئَةٌ مُلْقاةٌ على الأرْضِ ، قَدْ تَناثَرَ ما كانَ بِها مِنْ طَعامٍ . لَقَدْ أرْسَلَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) عَلَيْهِمْ ريحًا زَلْزَلَتْهُمْ ، وَفَرَّقَتْهُمْ ، فَعادوا إلى بِلادِهِمْ مَدْحورينَ !

رَأى الرَّسولُ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمينَ مُعَسْكَرَ الأعْداءِ ، فَقالَ : « الآنَ نَغْزوهُمْ وَلا يَغْزونَنا . نَحْنُ نَسيرُ إلَيْهِمْ . »

ثُمَّ قَفَلَ الرَّسولُ ﷺ راجِعًا بِمَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمينَ إلى المَدينَةِ ، وَقُلوبُهُمْ تُشْرِقُ فَرَحًا بِنَصْرِ اللهِ ، وَتَحْمَدُهُ – سُبْحانَهُ – على تَأييدِهِ ، وَتُسَبِّحُهُ ، وَتَسْتَغْفِرُهُ .

رياض الإيمان

سلسلة تربوية تثقيفية إسلامية

رياض الإيمان شذا فواح من حياة الرسول ﷺ وصحابته، يضوع في الآفاق، فيغمر القلوب بعطره، ويحيي النفوس بصدقه؛ فتجد فيه الأسوة التي تفتقدها، والقدوة التي تنشدها؛ فقد كانت حياتهم التطبيق العملي لما أنزله الله على رسوله.

نفحات من سيرة الرسول وصحبه



مكتبة لبنان ناشرون

الشركة المصريَّة العالميَّة للنشر - لونجمان